سلسلة كتاب نادي الشحر الأدبي (٢)

الأعمال القصصيَّة الكاملة



للأديب القدير

أحمد عبدالله بامدحج

الأعمال القصصية الكاملة

للأديب القدير/ أحمد عبدالله بامدحج

ومضة:

وخشيت الأم أن يكون متحاملاً على الجيران. وتبصرت في سرعة القرارات والأحكام وتوخمت عواقبها فتحاملت على ضبط النفس حين بلغت المشاعر ذروتها، وردَّت عليه: بُني فأر البيت أفسد فطورك، أما كتابك فقد أتلفه فأر المدرسة، الفئران أينما وجدت شرهة، اذهب حتى لا يفوتك الطابور الصباحي، ألا تصغي إلى الحديث الديني؟ ألا تسمع طرقاً على الباب!؟

- اصطفاف من غير انتظام، فماذا أعمل بهذا الكتاب..! وولى مقهقهاً ودار ... صكت وجهها، وتاهت مجيدة إن كان انتقاماً من نفسك ففكه قطع غيار للمقررات المتغيرة على الدوام، فالكمال لله...

انحنى، وحمل الحقيبة المثقلة فوق ظهره ونفسه لا تقوى على حملها، ثم خطا خارجاً وهو يردد ... (وقل ربِّ زدني علماً) لعل هذه تصلح على واجهة تجارية، كما صلحت تلك للخط الجميل في المدرسة، وصفق بالباب خلفه...

(قصة: في بيتنا فأر)

سلسلة كتاب نادي الشحر الأدبي (٢)

الأعمـــال القصصيَّـــة الكاملـــة

للأديب القدير

أحمد عبدالله بامدحج

سلسلة كتاب نادي الشحر الأدبي (٢) لعام ٢٠٢٥م

عنوان الكتاب: الأعمال القصصيَّة الكاملة.

المؤلف: الأديب القدير أحمد عبدالله بامدحج.

الحجم : ١٤ × ٢١ سم.

تصميم الغلاف: حسام علي بامحسون.

الناشر

نادي الشحر الأدبي

مدينة الشحر – محافظة حضرموت – الجمهورية اليمنية

الطبعة الأولى

١٤٤٦هـ - ٢٠٢٥م

حقوق الطبع محفوظة

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع والتصوير والنقل والترجمة والتسجيل المرئي والمسموع والحاسوبي وغيرها من الحقوق إلا بإذن خطي.

سلسلة كتاب نادي الشحر الأدبي (٢)

الأعمال القصصيَّة الكاملة

للأديب القدير

أحمد عبدالله بامدحج

الإهداء

إلــى ينــابيع الثقافــة، قناديــل الفكــر والمعــارف، مصابيح الضياء، أنوار الهدى، مرآة الحياة والعطاء..

أحمد بامدحج

المقدِّمة

نفخر نحن اليوم في نادي الشحر الأدبي بأننا من قام بالتصدِّي لهذا العمل الإبداعي الكبير وإبرازه، كما نفخر بأن أدباء وكُتَّاب كبار لهم تاريخهم الإبداعي الكبير مثل الأديب أحمد عبدالله بامدحج، والدكتور محمد أبوبكر حميد، والأستاذ عبدالله صالح حداد، والأستاذ محمد سقاف الهدار وغيرهم أعضاء معنا في هذا النادي الأدبي المختص بأدباء الشحر بكلِّ عراقتها وتاريخها الموغل في الحضارة الجنوبية للجزيرة العربية.

الأستاذ أحمد بامدحج من الأدباء والتربويين المعروفين في مدينة الشحر وحضرموت، وهو من أبناء هذه المدينة العريقة الشحر ومن الكوادر التي قامت بأدوار ريادية بارزة في عدد من المجالات، منها الإبداعية والتربوية والاجتماعية، وهو – حفظه الله – ممن يشار إليهم بالبنان الناصع البياض في المجتمع.

هذا العمل الإبداعي الذي بين أيدينا اليوم "الأعمال القصصيَّة الكاملة" قد صدر جزء منها سابقاً في مجموعة بمناسبة صنعاء عاصمة الثقافة العربية ٢٠٠٤م، إصدارات صندوق التراث والتنمية الثقافية – وزارة الثقافة، تحت عنوان: "بعدما طال الانتظار" وصدَّرها الأستاذ عبدالوهاب محمد الروحاني وزير الثقافة حينها؛ وهذه المجموعة تحتوي على خمسة عشر قصة، جاءت في ١٠٢ صفحة، مقاس: ١٢ × ٢٠ سم.

وبتاريخ ٢٧ مايو ٢٠٢٢م قمنا إدارة وأعضاء نادي الشحر الأدبي بزيارة تكريميَّة للأستاذ أحمد بامدحج وأثناء الزيارة اقترح الأستاذ الأديب عمر عوض خريص تبني النادي إصدار الأعمال القصصيَّة الكاملة للأستاذ بامدحج فصادف هذا المقترح قبولاً عند الحضور فقرَّرنا أن نقوم بذلك خدمة لأدباءنا وما أبدعوه من نتاج فكري وأدبي رائع نفخر به.

وبعد أن كان ذلك الاتفاق الإبداعي مدَّنا الأديب بامدحج بمجموعة من القصص التي لم تنشر في مجموعته

الأولى "بعدما طال الانتظار"، فبدأنا بالعمل الذي استمر أشهراً بين الصف بالوورد والإخراج الفني والمراجعة والتنفيذ الطباعي، وقد تم تمويل طباعته عبر الأستاذ الدكتور صالح عوض عرم عضو الهيئة الاستشارية للنادي.

والحمد لله رب العالمين فها نحن اليوم نحتفل بهذا الإنجاز الإبداعي الرائع الذي سأترككم الآن تستمتعون به دون ازعاج ولا قلق، فأرجو لكم قراءة ممتعة مفيدة؛ تحياتي ومودتي لكم.

أ.عادل حاج باعكيم

رئيس نادي الشحر الأدبي

٢٥ أكتوبر ٢٠٢٤م

شيطان الجسد

اعتدل قرص الشمس في كبد السماء وشمس الصيف المحرقة تلفح الوجوه، فيتصبب العرق غزيراً من شدة الحر والخجل والخوف...

الجهد والعمل، اللهو والعبث الأمل والطموح، والذل والهوان، والثرثرة والصمت الناس الصاعدون منهم والهابطون الماشي والراكب. صفيح السيارة ينقل حرارة الشمس إلى داخلها فتمتزج بحرارة الأجسام والسيارة تطوي المسافة مخلفة وراءها خطوط الرصيف المتعرجة وأكوام الحجارة وبقية من أشجار غرستها البلدية تقاوم الجفاف صامدة لإثبات وجودها تقاوم ولا تستسلم .. فما دامت الأرض تعطى فلابد أن تمد جذورها للأعماق، إلى ما هو داخل في محيط دائرتها دون أن تمتد إلى ما ليس في نطاقها. تعيش وتمنح الفرصة لغيرها أن

يعيش، علمها الإنسان الانتظار والتقشف، ولكنه لم يسع لترويض نفسه.

كان أول لقاء يجمع بين اثنين أولهما راكباً سيارته والأخرى تمشي فوق الرصيف، بعد أن استوقفته مستنجدة أن يرحمها من شمس الصيف اللافحة، لتحفظ ما تبقى من أصباغ على وجهها.

تنهدت مطمئنة بعد أن أركبها معه وسألها عن وجهتها.. أغمض عينيه ثم فتحهما مرددا قولها : (المكان الذي يعجبك، ألست عظيما ؟ فوراء كل عظيم امرأة. اعتدل فوق مقعده وسرح يسخر من ميوعتها ودلالها ومن نفسه: أنا شخصياً أتقزز من هذه الجرأة التي لا تحدها قيود، وأشمت في أي امرأة تستوقفني، وتستميلني ثم تستهويني فتشدّني إليها، لا أدري لماذا تغمرني السعادة وأنا أقود سيارتي بمفردي من غير زوجتي وأطفالي، ثم أندم على أني تركتهم ولم أخذهم معي. أنا أحتقر نفسي فور انتهائي من مضاجعة أي امرأة عارضة نفسها في قارعة الطريق يستهويها ويغريها

ركوب السيارات.. فألعن ساعة خروجي وأكرر التوبة، وتتكرر الخطيئة، وأكتشف وأنا أعبث بشاربي – أن البيضة الناعمة الملساء من الخارج رائحتها من الداخل كريهة–.

تلوك اللبان بين أسنانها محركة عجيزتها، فيتراقص قرطاها كبندولين، ويتلامس نهداها معتبرة لقاءنا حلماً قديماً يراودها، وها هي الآن تحققه، أفلا يجوز لقلبين حالمين أن يلتقيا؟ ها هو المجتمع يفرض علينا قساوته، ظلمنا نحن الحالمين كثيراً وفرض علينا جملة من القيود التي أسموها قيماً، وما علينا إلا أن نتخطاها ونقطع شريط التحول ونتحرر وعند التحرر انقطع شريط تفكيري، ثم استأنف العمل.. وتأملت الحرية والتحرر فوجدتهما سلاحاً ضد الإباحية وأن الشريعة والقانون والقيم الإنسانية حاربتها على مر العصور. وأف للغريزة الحيوانية التي تتلاشى في وجودها كل معاني الإنسانية والروابط والصلات الاجتماعية.

كنت في البداية متأففاً من هذا الصنف المتفسخ، أما أنه مريض أو بداخله عقدة نفسية، مستخدماً شتى الأساليب

لانتشار المرض.. ومادامت مريضة فإنها لا ترى الصحة إلا على الأصحاء ولابد لها، تخرجهم عن طور الاعتدال فلا تضع اعتباراً لقيم المجتمع ولا تحترم أخلاقياته.. علي أن أتخلص منه بأسرع ما يمكن...

قرصتني في زندي، فقلت مدللاً: ألا تهدئين.

قالت وقد اختلطت كلماتها بقعقعة ضحكتها، وخشخشة أساورها التي كست معصمي يديها وهل يهدأ النمل..!

- الحركة بركة.

- صح.

قالتها مضخمة صوتها مغيرة نبرته فأضحكتني وأذهلتني وأضعفتني وقد ملت إليها وأنا لا أدري، كيف..؟! وأخذت حينها أبادلها أطراف الحديث.. نمت عاصفة الحب سريعاً وبددت كل الضباب. رأيتها جميلة أنيقة.. أنثى تحمل كل ما يشتهيه عابر سبيل. أنار قلبي وجهها المستطيل، وبهر

بصري وهج عينيها، فلم أر سواها تندية للجسم الناشف والشفاه المتعطشة، والقلوب المتحسرة. وجدتها تحمل إلى السعادة نسمة زفيرها .. وودت أن أمخر بقاربي عباب صدرها المكتنز راسيا في حضنها وشاعراً بالاطمئنان ورأسي غائص في حجرها الدافئ وقد مللت حضن زوجتي في هذه اللحظة الذي كنت أرقد فيه كالطفل أتنفس هواء الطمأنينة ولكن لم أحس بدفئه الساعة مادام المأذون سيارة وقد تحققت رغبتي في اقتنائها.

واقع فرض علينا منطقة فلماذا لا أستسلم أنا الآخر سريعاً ويحقق كلانا ما تمناه. ولكنها الخطيئة التي لم أتمناها وأنا خارج من بيتي.. فكيف تأتَّى لهذه الأمنية أن تأتي ولم أسع لها – فإن لم أكن فيكون غيري واقع رهيب ولكنه مشجع ومثير. كلمتني فأظهرت لي حبها بالدموع وثرثرت فأبرزت لها حبي بالكلام. قلنا أحلى الكلام في الحب كما راق لنا، وكذبنا، وارتضى كلانا بخدعة الآخر.. سألتها عن البيت والأسرة والأولاد هزت كتفيها وهي تنفخ الهواء من فمها:

– ماذا يعني؟ رغوة صابون – لا أقل ولا أكثر.

وراحت أصبعها تمسح وتمر على شفتي حتى دستها في فمي، فضغطت عليها بأسناني ضغطاً خفيفاً. أطلقت آهة وهي ترمي رأسها وتحك خدَّها الأيمن بخدِّي الأيسر وهي تخلط الولولة بالضحك، وسألتها بعد أن اعتدلت في جلستها:

– ماذا تعنين؟

– لا شيء.

– كيف لا شيء... والزواج هو الذي ينشئ السعادة

– التي لا نحسها إلا إذا فقدناه.

– هذا شكل الحياة.

– والمضمون ..؟

– المظاهر.

– أخشى أن تكوني ضحية الوسط.

– وماذا يعني – مثلي كثير ولست الوحيدة – شيء كمالي بالإمكان إثارة منه قضية.

– ولكنك مرتبطة.

– عقد بالإمكان الإخلال به، وفي مقدور كل طرف – نزاع طويل يجعل كلا الطرفين على خطأ – فيستسلم أحدهما للآخر.

– لم أفهم.

– أحسن. المرأة يجب أن تعيش حرة طليقة من ربقة القيود، تحبّ من تشاء وتعشق من تريد، وتهجر من ملت معاشرته، وتتزوج إن شاءت مخففة العبء وتحمي نفسها أيضاً من المجتمع.

يا زوجتي.. أين أنت الآن.. وكيف أتخيلك .. هل أسندت ظهرك للحائط من كثرة الجهد الذي تبذلينه في إسكات وإرضاء طفلك الصغير. أنا متأكد أنك لم تنامي إلى الآن رغم ذلك السهر طيلة الليالي الثلاث بسبب المغص الذي ألم به.

كيف أتخيلك وأنا أمام هذه المرأة العابثة الماجنة وقد بلغ بها الاستهتار حداً اعتبرت فيه الأسرة رغوة صابون – أظن أنني غير محتفظ بتوازني – في أي صورة تتمثلين وأنت قد تحملت تلك السنين السبع معي العجاف، وآثرت القعود في الدار على الخروج والاختلاط بالناس لأنني لا أقدر على حينها على شراء ثوبا جديدا وكنت راضية.

هل التي أمامي زوجة أم نوعاً مشوهاً؟ وإذا كانت كذلك فأي زوج هذا .. إلا إذا كان هو نفسه الذي دفعها إلى مالا تريده من نفسه يعمل أمامها شخصية أسطورية يجسدها في خيالها بمرور الوقت والتكرار وهي بدورها تترجم خياله إلى واقع ويتحول من قول إلى فعل، ولكنها كثيراً ما تحصل، وفي أحسن العائلات..

ليس لي رغبة في جسدها، ولكني سأبقيها لا ستمتع بوقتي.. وقد راحت تثرثر وتذكر من الناس رجالاً ونساءً ما شاءت.. كم واحد طاردها، وكم واحدة طوردت، وكم من دفع بنفسه وبخياره. وصفتهم بما يحلو لها، وما يمليه قلبها على

لسانها، فلم تتورع في الافتراء على الناس. وحولت إلى نفسي وطلبت مني أن أحدثها عن شخصي... وأن ندع الأمور التي لا تهمنا الساعة.. فهنا ما هو أهم..

زم شفتيه وقد زهد فيها. لم يقل شيئاً، لكن وجنتيه انتفختا تنبئان عن ابتسامة خفيفة تحمل معنى اهتدى إليه فماذا عساه أن يقول وكل شيء أصبح واضحاً تماماً ... فليختبر رغبتها وصبرها بشيء من الصمت حيناً والإذلال حيناً آخر وهي تتعذب من تغابيه وهو يريدها أن تشتد أكثر وتميل إليه بعنف الجسد وحرارة الدم الذي يجري في أوصالها. ويراها وهي تتلهف لوصاله مادامت عاشقة له كما قالت.

ضاقت ذرعاً من برودته وهدوء أعصابه، فوخزته بكوعها فأنَّ وابتسم .. وصرخت فيه قلقة حانقة على أنوثتها التي لم يقبل عليها بنهم:

– أنت كأنك لا شيء فيَّ يثيرك.. ألست إنساناً !؟ ألم تكن بشراً ؟ هل أنت معصوم أخشى ما أخشاه أن ينزل عليك

الوحي الساعة. من تكون أنت، ومن أكون أنا.. ماذا عسى أن يحدث بين رجل وامرأة.. عليك الآن أن توقف السيارة وتنزلني في هذا المكان فكل منا له طريق..

أضاء نور السيارة في عز النهار، ثم أطفأه وأدار عجلة القيادة فعاد نحو نقطة البداية بعد أن ملها وتمنى لو يقذف بها خارج السيارة لتدوسها العجلات والاقدام المرهقة لينتهي وإلى الأبد هذا الصنف من النساء اللاتي يحولن الحياة السعيدة إلى جحيم .. يشوهن جمال الطبيعة خارجات عن دائرة الاعتدال .. امرأة كهذي لا ينتظر منها غير الدمار وانتصار الشيطان على الإنسان، انتصار الجسد على العقل. داس الفرامل، فتوقفت العجلات ولم يقف الزمن.. وصاح فيها ملفتاً انتباهها بعد أن سرحت بعقلها جارحاً لأنوثتها، لاذعاً ومتهكماً من طيشها، ومستفزاً لعواطفها:

– إذا كنت حقاً تريدينني فلي بيت مثل كل البيوت فاقصديه.. زوجتي وضعت طفلها الثالث في بيت أهلها وهي تستريح لذلك وتطمئن أكثر من اطمئنانها في بيت زوجها – ربما كان

مزاجاً وربما حاجتها لمساعدة أمها التي لا ترضى عني – مسح وجهه بيده اليسرى ومال ببصره نحوها حتى وقعت عيناه في عينيها. وهمس:

– أنا وحدي.. حددي الزمن وقد حددت لك المكان. هلمي إلى وستجدينني في انتظارك .. هيا الآن أخرجي... أنت تعرفين كلام الناس.. طبعاً لا يرضيك أن يتقوَّلوا السلامة. قال لها ذلك وهي تعلم أنه يطردها فأخفت أساها ورمقته بنظرة تحمل إليه العتاب الممزوج بالأمل! فجاوبها بقبلة طبعها على مفتاح أمسكه بيده بعد أن شده من سلسلة يعبث بها بين أصابعه. مدت يدها لتأخذه فدسه في جيبه وراحت سبابته تنقر نقرات ثلاث على الزجاج الأمامي، فطأطأت رأسها ولفت ذيل ثوبها الشفاف وسحبت نفسها خارجة تجرّ الخيبة مع أطراف ثوبها الذي بدأ يمسح الأرض ويكنسها .. ضغط على بوق السيارة فرفعت رأسها بعنف، وهي تنقر في الهواء نقرات ثلاث... وراحت قدماه تضغط على دوَّاسة البنزين فانطلقت

السيارة مخلفة وراءها امرأة على الرصيف تدير ظهرها وتتجه..

دخلت بيتها والغضب ينهشها ويد تعصر لها قلبها، فركلت أواني البيت المبعثرة وضربت طفلها دونما سبب .. وأقبل زوجها فأثارت معه معركة كلامية ففضل السكوت وخرج من البيت مسرعاً كأن عصا غليظة تلسع ظهره. يعلم مسبقا لو فتح فمه بكلمة واحدة – الويل له – والخراب لبيته، والضياع والتشرد لابنه الذي بات أمله وجعله سببا يتذرع به في إبقائها في البيت، وهي لا تحسب حساباً لذلك. لقد تقمصت الشخصية، وتلبست بها تطبّق له حكاياته ومغامراته التي يقوم بها خياله له لتصدقها عندما كان يحكيها لها على الوسادة فجاملته في البداية ولكنها وجدت نفسها تمدُّ عينيها بعد ما زين لها الشيطان الغواية...

لم يتركها شيطان جسدها المهزوم أن تسكن وتقطع الأمل، مادامت تمتلك وسائل الإغراء، فلديها من القوة والتأثير مالم تجربه بعد وصار همها الوحيد أن تنتصر، أن تحتقر

رجولته وهو يضاجعها، أن تضحك وتسخر وتهتز من غير معنى أو إحساس .. أن ترهقه حتى يتودد إليها أن ترحم جسده المنهوك وهي مصرة أن تحكي له حكاية قبل النهاية. تنتصر وتستنزف ماله الذي لا يهمها وتمتلك جسده لها وحدها عابثة به دون غيرها بأنوثتها صممت أن تجعله خاتماً تديره في أصبعها...

وفي الهزيع الأخير من الليل، سحبت نفسها خارجة وقد هزتها ريح الفجر ففاح عبير زهرتها الأنثوية وحمل الأثير إليه شذاها وقد دقت أصابعها برقة باب داره. استيقظ وكانت الأحلام مليئة بالكآبة تلك الليلة، لم يُطرق بابه في مثل هذا الوقت، ولم تخطر على باله ولكنه حين استجمع حواسه تذكرها من خلال النقرات الثلاث، وبرز أمام عينيه المشهد الذي مثلاه في الصباح وكانت له بمثابة خاطرة عابرة سيطويها الليل كغيرها. هو وعدها، وهي أنجزت له وعده. والوعد دين – فكيف يلقاها وهو لم يتهيأ لاستقبالها – وراحت أصابعه تعالج مفتاح الباب ولا يشعر. اندفعت إلى الداخل

واندهش لمرآها – امرأة متجمِّلة متزينة لترضي من هم حواليها .. يالـه من جمال ظاهري زائف أصباغ وأثواب زاهية ولكنه جمال فيه الغش والخداع على مر الفصول ولا يضاهى جمال الزهـر الطبيعـي فـي فصـل الربيـع. ولكنـه تطـاول وحـاول التعرف.. فقذفت به إلى الضفة الأخرى.

ضحك مجاملة لها ساخراً من سلوكها غير قانط وقد بات يعرفها ويعرف عنها كل كبيرة وصغيرة.. وكانت الجرأة التي واتته على فتح الباب قد أوقدت في نفسه الاستهانة بليلة عابرة. وتنهد مطمئنا لوجودها معه بين أربعة جدران، وارتاح بهذا المكان أكثر من ارتياحه داخل سيارة في الخلاء وبدت اللعبة تتمثل واقعاً .. حين زاد ثقة: وزهوا بنفسه وأدخلها غرفة زوجته وضحك حتى استلقى على قفاه من مشهد لو شاهدته زوجتـه وهـو يضـرب بكرامتهـا فـي جـدران غرفتهـا الخاصـة، ويجرح مشاعرها وكبريائها، غشى الضباب عينيه، وانطمست أمامهمـا معـالم البيـت والأسـرة وتـداعت أركانهمـا، وتناسـى كلاهما الأولاد والعشرة وحاجتهما إلى الإخلاص والوفاء أكثر

من حاجتهما للأكل والحب عندما راح يفتح ضلفتي النافذة، ويطل على صحراء قاحلة .. حينها أخذت الريح تعصف بضلفتي النافذة وبدالهما نحيفاً وقد استعاد توازنهما الداخلي. وجاهد في إغلاق النافذة ولكن هيهات وسواد عينيه يعكس صورة وجهها. وسقط منهاراً، وأسدل ستار على الحلم الذي أضناهما. ولكنها وقد انتصرت وشفت ما بها من غل فلا بأس عليها من النشيج، وسوف تحسن التصرف في حينها ولا يلزمها ان تشغل بها عقلها منذ الآن.

وحول العروس دارت الأجساد ترقص بجنون وتزغرد الأفواه بفنون فرحا واستعلاء والجروح تنزف دما وألما.. وصرخ وحده صراخا يحمل كل العذابات الإنسانية، فلم يسمع صراخه مع دقات الطبول وزغاريد الفرح، ونكات الساخرين وغل الشامتين وصخب الحاضرين.. وصحا ولم تظهر على وجهه أية بادرة من بوادر السرور التي توقعوها، فتبددت الضجة الزائفة، وانقشع الغيم سماء صافية، وتحول الهرج والضجيج إلى صمت رهيب.. وأخذ البحر يبتعد وخط الأفق يتلاشى

وأصبحت النظرات أكثر برودة. تبدد كل شيء وضاع ما كان يحلم به، فغسل قلبه قبل فمه، وبات الجميع واقفين وقد أعياهم التعب والملل لكثرة ما غنوا ورقصوا وفرحوا وشمتوا حتى أرسلت الشمس أشعتها تحيل الماء إلى بخار...

سبتمبر ١٩٨٣م

زاوية منفرجة

كنت لا أرى في حسني إلا شاباً فاضلاً، حسن الخلق، قد دأب منذ صغره على العمل العضلي، فشب حمالا للأشياء، يندفع منذ الصباح الباكر يعمل ويشقي حتى حلول الظلام.. فلا يكل ولا يمل كأنه يعمل بآلية تجعله يفقد الشعور بالتعب. لم يتضايق يوما، وليس بحاجة لأن يشعر جسمه الراحة، وإذا طلبت منه أن يؤدي لك خدمة ويحمل لك شيئاً كلمك بأدب جم، ولهجة رصينة يحملك حديثه القصير على الطريقة الأمريكية كما يقال: في أن لا تختلف معه وتبحث عنه مرة أخرى دون سواه.. وتستبعد من ذهنك كل ما توسوس به لك نفسك نحوه. زملاؤه في المهنة، وكل من رآه يندفع بنشاط وحيوية يتمتمون برثائهم لحاله، ولكنهم بثرثرتهم يعلنون عما في دخائل أنفسهم، يحقدون باختلاف نظراتهم إليه، ومنهم من بات يحسده على صحته وعافيته، ومنهم من يغار على سيلان الرزق بين يديه متمنين ذلك لأنفسهم وهم كسالى

على بركة النسمة العليلة وقت الظهيرة من غير وزن لجهده وتعبه. لم يعطوا الوقت قدره، ولا العمل حقه في عالم تحكمت فيه المادة بشكل أكبر من أي شيء آخر.

ليس مقطوعا من شجرة فله أختان تعيشان معه ويحيون حياة بسيطة، ولكنهما ليستا معدمتين فهما تعملان وهو يكسب ما يربو على الدنانير السبعة يوميا.. ولكنه بات واضحاً أن الأسرة لا يهمها إلا الكسب وجمع المال، ورغم السنين التي مضت إلا أن آثار النعمة لم تظهر على أي منهم. ظاهرة غريبة تتضمن من التضليل أكثر مما تتضمن من تصوير الواقع. لم أصدق أن حسني يجمع المال ويبقى على هيئته الرثة، والثياب البالية التي تكاد تلفظ جسده وهو يأبي إلا أن يكون فيها. حاولت إقناع نفسي أنها صفات عابرة نشأت من التسليم بأن لها قيمة .. ولكن أي قيمة هذه التي مازالت تعشعش في عقل حسني وهو في وسط المظاهر.

كان عقلي ولا يزال مشحوناً بما لا يطيق.. ولما لم يختمر كل شيء وجدتها فتيل للانفجار كاستثناءات دفعت.

إلى إسقاط ما إلت إليه من رؤية تقترب وتبتعد، وتوصل ثم تقطع.

تذكرت صديقي الذي قلما أذكره إلا حين تشتد حاجتي للمال أكثر من حاجتي إلى صداقته، فيمدني بمبلغ أتظاهر أنه سلفة وهو يقره لتعزيز الصداقة فيرضيني تفسيره لأني لا أملك أن أرده إليه، وإن حصل يوما وتيسر المال عندي فلست على استعداد لأن أدفع إليه اليوم ما أخذته بالأمس.

كانت ليلة من ليالي شهر رمضان الأخيرة والناس رجالاً ونساء تجمعهم وتفرقهم الدكاكين والمحلات، يستعدون لمقدم العيد دافعين بالكثير لشراء الذي يحتاجون وما يفاخرون به.. حتى فناجين القهوة تكدست في البيوت أشكال وألوان، لم يستبينوا الطالع داخلها، ولم يتذوقوا منها يوماً شرب القهوة ومذاقها .. أصناف متعددة تؤدي وظيفة واحدة، أشياء كثيرة تنتقل من المحلات بشراهة النفوس وخفة الأيدي لتقبع في البيوت معروضة نيابة عن المحلات للحصول على أكبر قدر من الإشباع، وينفلت زمام الأمور ويختل ميزان الدخل

والإنفاق كأن كل شيء قد وازى الغذاء والماء والمسكن، وساد الفهم بقدر ما تكسبه اليوم استهلك وعش اللحظة. وصارت المتعة والإشباع أقوى من المنفعة والحاجة.

دوخني الناس وحركتهم، والوجوه الباسمة والعابسة، والنقود التي تتساقط من الأيدي الناعمة في أكياس الباعة. عرجت على الدكان لأحصل على بغيتي تبادلنا التحية وهنَّأَ كلانا الآخر بالعيد وهو لا يملك الوقت لأن يستمع لثرثرتي، وإلا ضاعت عليه فرصة العيد.. ولكنه سيحز في النفس كثيرا، وربما شعر بالندم إذا لم يحسن استقبالي ولا يماليني في الحديث الذي شرعت فيه ولو من باب النفاق.

ذهلت عندما ألفيت حسني واقفا بباب الدكان وقد مد يده، وبسط كفه، وفزعت لما تيقنت من أنها يد شحاذ بعد أن ضمت الخمسين فلساً التي ألقاها إليه صاحبي، ونظرت إليه مستفسراً بعد أن غاب حسني من أمام عيني، بادلني بنظرة وهو يقول: لا تندهش، قم وانظر. ووقفت أتأمل من باب الدكان وأرى حسني يتنقل من دكان لدكان. عدت إلى

موضعي وجلست أنظر ببلادة إلى صاحبي، ففهم ما أتساءل عنه، ولم يدعني أغرق في تأويلاتي وبادرني يقول: هذا الذي رأيته أظن أنك تعرفه كما أعرفه أنا دون احتمالات أو افتراضات.

هناك العديد مثله يعملون ولا يكفيهم جهدهم فيتسولون كلاً بطريقته، لسد الحاجة أو رغبة ومتعة بالاستحواذ، ولكن ما حيرني هو ما أسمعه يتردد حول حسني..

وتساءلت شامتاً: ماذا عساه أن يفعل أكثر مما فعل والعافية تنطق على جسده؟ لماذا يذل نفسه ويحط من قدره؟ تأوه صاحبي وجال بنظراته في المكان وقال: هل تظن أنه يبني عمارة، أو يقيم مشروعا .. لا أعتقد ذلك، حتى الزواج عازف عنه. وضحك صاحبي باستياء وقال: لو كان هذا أو ذاك لكان الأمر نافعاً له.. فرحنا أو كرهنا، رضينا أم أبينا.. ولكن الحال سيء، وأسوأ منه ما سمعته والله أعلم من أن حسني عاطفي جداً، يميل إلى صنف آخر ويغدق عليهم فيدفع على الكلمة، والخمسة لتجسيد الحوار وما شاء لإشباع

غريزتـه. كـان الحصـول علـى المـال بالجهـد والعـرق وزيادتـه بالتسـول.. إلا أنــه فــي آخـر الأمـر يعـود فيفـرك أصـابعه ويتحسس ما بين فرقتها.. وترى في النهاية أنـه يدفع أكثر من القدر الذي يقبضـه بكثير، يعيش علـى الهامش ويدفعه سلوك الهروب من الواقع الذي يفترض عليه أن يعيشه. حكاية تبدأ بحكاية وتنتهي بحكاية...

انتبهت مذعوراً من عسعسة ذلك الطفل الذي تركته زوجتي بجانب رأسي وهو يغرس أصبعه في أنفي فأعطس كل ما كان في خيالي من حكاية، وكرهت حينها من أن يكون لديّ إحساس ينميه تتابع الأحلام إلى حد قد يصبح فيه الطاعة المحرِّكة...

مارس ١٩٨٦م

قبضة اليد

أسند ظهره، وتأوه وهو يفرك عينيه، ثم مسح على وجهه بيده اليمني وشدّ أرنبة أنفه، ثم رفع بصره ينبئ عن الارتياح بعض الشيء بعد أن أخفى يده اليسرى في جيبه يتحسس بها قطع النقود التي تفوق سرعة تدفقها في يديه سرعة الضوء. ابتسم مطمئنا لدوامها في جيبه، وكور ملء يده وشد قبضته عليها بأصابعه كالكماشة، ورفع ذراعه هاتفا بدوام الحال .. لكن خطواته تلاحقت عندما داست قدمه قشرة موز رُميت على الأرض وانزلقت القدم وارتطم الجسد بالأرض وتبعثرت النقود. حاول النهوض فلم يستطع، رفع بصره وحملق مستنجداً فلم يأبه له أحد. فقد غدا الكل منشغلاً بنفسه حين صار البعض تروساً تعمل بآلية لتحقيق مصالحها الشخصية، وفقد البعض قناعته بما يعمل، وآخرون يرفضون الانصياع. وأقبل حمار فظن أنه أُرسل لنجدته، ولكنه لقى منه رفسة في رجله، تأوه وكتم صرخته كي لا يقال عنه أنه

ضعيف وهو يبتلع حقد الماضي.. وشخص ببصره وفزع على أثر سكين ترتفع ولكنه هدأ عندما هوت تقطع كتلة من الحلوى.. أغمض عينيه وقبل أن يهنأ أطلق صرخة مدوية وانقلب على ظهره متألماً من رجله .. وخاف أن ينظر، ولكنه أحس بثقل عند رأسه، وسائل لزج يطوق عنقه، هل انفصل؟ تحسسه... اطمأن، مد يده وأزاح الثقل عن رأسه، نظر إلى يده المصطبغة بالأحمر القاني .. أغمض عينيه في سخط، فسب الحضارة وصب وابلاً من لعناته وغضبه على العصر وسرعته، والتقدم الهائل في تناثر العقول وتباعد الأجساد.. وأشار إلى الناس وتعفير الوجود بالتراب، والدخان والغبار، والأمل الذي يتحطم على جدران الصمت والإفراط المتزايد في الميل بلا نيل. وتبسم في أسى لما آل إليه وألقى بخده على زنده فكلما اشتهى شيئا بطريقته لا يصل إليه فتمنى لو أنه إحتاط لنفسه بمنوم يغنيه عن كل هذه المتاعب – لكن لابد من صحوة بعد سكرة، ويكون الأمر الواقع بدلاً من الوهم المؤقت.

نقوده المتبقية لا تزال في جيبه لا تقدم له الخوارق وستجمد في مكانها بعد أن تبرد.. هل ييأس، أم عليه أن يقدم معها شيء من التنازل، أما قواه فقد خانته في الاختيار واستيسر أن يحدث تغيير .. وراح يتأمل من جديد، وكأنه فاء إلى نفسه بعمر مديد يربط بين الماضي والمستقبل يكون له فيه رأي سديد وإذا بشيخ عجوز يقع بقربه وتنزلق عصاه لتصطدم برأسه، أنَّ ولكنه لم يعد يقوى على الصراخ واغتم لما تحسس جبهته وألفى بها ورما، ولكن يده الأخرى نزلت في أمل تتلمس العصا فعاوده الاطمئنان بعض الشيء، كيف لا وقد أصبح من ذوات القوائم الثلاث، ونهض من مكانه متكئاً على العصا، تاركاً الشيخ العجوز يحل مكانه.. وأخذت الحياة تدب في عروقه والأمل يعلوه على إثر تقدمه خطوة خطوة مبتعدا عن الزحام والغبار. واطمأن ببعده عن المكان فأخرج نقوده وتأملها فتنهد مرتاحاً وهو يخفض يده ليعيد النقود لجيبه، وفي لمح البصر وسرعة البرق طيّرت من يده لتتلقفها يد تترصده وجسم يرتطم به ليعيده مرة أخرى ملقياً على

الأرض تأوَّه متألماً وحمد الله على أن أُلقِيَ به خارج الزحمة، وشيئاً فشيئاً أخذ يستسلم معتبراً ذلك أمراً واقعاً لا يتيح له الانطلاق بمطلق الحرية. وفي هذه المساحة تكاثرت على صدره طعنات الضمائر، وصرخات الحرائر. نهض وغسل وجهه ثم لبس ثيابه وخرج يبحث لنفسه عن عمل...

أبريل – ١٩٨٦م

ذلك السوق

التجارة شطارة، وبين الشاري والبائع يفتح الله، والحياة بدأت تدب في ذلك السوق – وما في اليدين ودائع الله– ومخلوقات الله تتوافد إليه – فرادى وجماعات– إلى أن ازدحم المكان بكل مخلوق بتكوينه وصفاته التي تميِّزه عن غيره.. إلا أن الناظر وللوهلة الأولى لا يُلقي بالاً أو أدنى اهتمام بالفصيلة أو النوع فالجميع في تمازج، فكان يتطلع إلى الكل وتغيب من أمامه الجوانب المشرقة من تلك الحركة المنتشرة في المكان وتتماثل أمامه المساعي عندما يرى رؤوساً تؤمي، وأخرى ترتفع، ومثلها ينحني، مئات تتجه نحو اليمين، ومثلها صوب اليسار – كالسوائم البلهاء حين تضن عليها السماء بفيض عطائها حول دائرة الإنسان الحائر.

الشعاع الذهبي الذي ترسله الشمس التي انهكها طول النهار يحمل بين خيوطه بشائر لقبور مظلمة، وقصور مشيدة منارة، ويختلط أصفره بالظلام الزاحف، وتحال إلى بقية ضوء

رمادي وقد غابت الشمس عن المكان ولم تترك أثر يذكر بها في الحين الذي أخذت فيه تلك المصابيح تشع واحد تلو الآخر.

مصابيح مشعة في زرقة البحر، في صفرة الفقر، في حمرة الثورة، في خضرة الزرع، في بياض السلام محدثة ألواناً من الظلال الأسود عند كل زاوية، فنتحاشى النظر إليها، ونسقط الطاقيات فوق عيوننا، حتى لا نرى شيئا متوهمين أن ذلك سينقذ أجسادنا على الأقل حتى وأن ظلت أفكارنا في الحلم طائرة.

رفع البصر، الجزمة موضع القبعة.. نظرة إلى أسفل الأقدام عارية، أربع في جسد واحد، اثنتان، ثلاث، ست. يالقدرة الخالق، ويا لعظمة الواحد؛ ويا لما أرى... الزحام يتزايد والغبار يرتفع، والزحمة تتحول إلى احتكاك بين الأحياء والجماد الأجساد بالطاولات والكل يتمايل بين خيلاء وضعف الإعلانات، اليافطات، اللوحات فوق الواجهات مزينة بأبهى الألوان الدعايات تنطق بالامتهان التي يبهرك بها الإعلان، والأشياء قد قبعت في تتابع الحقيقة صامتة البضاعة

المعروضة داخل المحل غير التي يبهرك الاعلان، والأشياء قد قبعت في تتابع أحمق، والنظرات تتواثب بعنف من خلال عدساتها القوية والضعيفة، لتوهم أنها ترى كل شيء من حولها، مغمضة عن رؤية داخلها – استمتاع وحيرة، وانبهار وانكسار – هذا مليح ولكن ذاك أملح، هذا يشبع النظر، ولكن ذلك يشبع البطن، ذلك يبعث على الاطمئنان، لكن أولئك مثار للقلق...

اشتد الزحف فزاد التراجع، والنقود في قبضة اليد لا تحلب شاة، وأكياس البنكنوت وسائد تحت الرؤوس تحلب بقرة، والشيكات المبهرة المرصعة بها الجباه تفتح حظيرة وصار التمازج والتمايز صفتان متناقضتان، وأمسى الاعتداء بالنفس من غير إعداد غروراً، وبات الصراع والتوافق علاقة وإحساس تحركه القوة وحين تضعف مقاومتها، يكثر العبث بالشارب واللحية حتى يتساقط الشعر في المجمره.. ولأن محاولات تفويت الفرصة أنانية ذبحت الفرحة، فحلَّقت الفرخة حتى صار للبحر مد بلا جزر..

أبريل ١٩٨٦م

القضية المحفوظة

منذ سنوات كان يومي عادياً كبقية أيامي الغابرة إلى أن التقيت به مع الأصيل .. لم أشعر إلا بخطواتي تضطرب، وتتباعد شفتاي، وتسيل عيناي حين حدجني بنظرة محرقة تحيل الحجر لرماد. كيف تجرأت على النظر إليه؟ كيف جعلني أتراجع وأسبل عيني..؟ لست أدري! كل ما أتذكره – والذكرى ناقوس– أنه ابتسم من غير أن يتوقف، ومن غير أن يمن علي بنظرة أخرى إلى محياه وقامته النحيلة، مما ولّد لدي إحساس بطفحان الدم في جسمي لسرعة دقات قلبي.. وأخذت في الذوبان أتآكل حين سرت بجسدي قشعريرة.. فغبت وانتفضت، وعدت. أحسست بوقع أقدام خلفي وصوت يهتف باسمي.. كانت مثلي عائدة من المزرعة وكانت تحمل فوق رأسها – زنبيلاً – واسعاً مليء بعلف الأغنام وفوقه حزمة من سعف النخيل المتساقط في فصل – الخريف – أنا والزنبيل صرنا كياناً واحداً .. ثقيل ولكنه لا يضاهي الأسى الذي في

نفسي. وصار الحذاء ينفر مني منذ حملتني رجلاي على المشي لأنني لم أعتد أن ألبسه – ولأني فعلت ذلك فسترتفع الأصوات الساخرة المتلذذة بتهكماتها حتى في الايام القائظة.. هكذا يعدونه خروجاً عن المألوف وابتعاداً عن طريقتهم التي اعتادوها وفي قرارة أنفسهم يرون صحة ذلك وضرورته للجميع.. لكن أن أكون كالحمار فهذا شيء عادي، والترويض على قتل الإحساس أمر ممكن الحدوث.. طاقتي وإمكانياتي استخدمها بمهارة في عملي وأنجز الكثير وأحصد الحصرم. كانت قد استتكرت اضطرابي، ظنت أن شوكة ولجت في رجلي، فرجتني أن أحتمل الألم إلى أن أصل إلى الدار.. كنت أحتمل كل الآلام. الإبرة تشكني في أصبعي فلا أتألم، ومن صلابة رجلي تتكسر الشوكة وأظل أمشي والمسافة تطول.. تأوهت ومشيت هي تحادثني عن الحشائش والأغنام والذهاب إلى المزرعة – التي لم تقو العصافير على البقاء فيها – صباحاً والعودة ظهرا محملة مما ثقل وزنه ورخص ثمنه إلى البيت لملء البطن، والعودة إلى المزرعة في العشى

والرجوع بعد المغيب مباشرة لترمي جسدها على أول حصيرة مفروشة أمامها، لحظات و نامت، وباعدت أطرافها مكونة سبعة فوق ثمانية، رقمان مختلفان لكن ارتكازهما في الجذع عندما يقدم الطرفان تنازلا يثير المتعة والاستغراب والسخط في آن واحد. ثم النهوض مبكراً في تثاقل وخمول لا تدري ما كنهه ولا من أين تسرب إلى جسدها وتظل يومها تحلم كلما الزهر تمطى تنشد الخلاص ويأبي من حديثها المعتاد.

غضبت وهاجمتها في قرارة نفسي كونها لم تحدثني عن ذاتها، وما يعتمل داخل نفسها. الحديث عن الذات عندي وبصدق فيه المتعة والألم، فيه الانبهار والانهيار والقوة والضعف، والفرحة والحسرة، والثقة والغرور فلولا الأمل في المستقبل لما كان لحياتنا معنى. لم تنظر بعد إلى نفسها ولم تقو على تفجير شحنة الضيم التي بداخلها .. ليتها تفعل وتدافع عن حياتها لتعيشها كريمة .. بَصصتُ في اصبعي حتى الخاتم المعدني ضنّ عليه! وأنا أطالب غيري بما لا أطلبه من نفسي – علاجنا في صفعة قوية تجعلنا نفيق

جميعاً – هل تحدث؟ وهل يكون لها التأثير الكافي..! مشكلتي أنني أرى ما في نفسي في الآخرين، قد يكون كله وربما كان بعضه نعيش في وضاعة نأكل ونشرب وننام تطاردنا الكوابيس لنصحو خاملين، وغير ذلك ليس من حقنا التفكير فيه، كل شيء بنفسي أراه، وأظل أتساءل: إذا كانت أمي مستودع أسراري لا تكلف نفسها النظر إلى نهدي وهما يضمران، وشعري الذي بدأ يتساقط وجسمي في النحول غارق، وعيناي في الحدقتين تغوران، هي حتى إن شاهدت ذلك فلن ترهق روحها وتكلف نفسها الإحراج.. فإن سارعت في الاهتمام فإن إدارة بيتها ستصاب بالفشل لأني أحد أركانه.. من سيطبخ – فليس بها أن تهتم ما دمت المساعد لأبي الذي لا يهتم إلا بأرضه ونحن من ملحقاتها، هكذا كان يتصرف معنا. لم يعطن إذنا صاغية، لأشتكي إليه حالي حتى وإن فعل فأنا لا أجرؤ. دأب على عدم مراعاة مشاعري، وأحاسيسي ينفر منها، ويثور دوماً عند مس مصالحه التي تضيع إذا انتقلت من بيته، فإن عافيتي ستتحول لشخص آخر

يستفيد من طاقتي. كدت أجن عندما رأيت شعرة بيضاء تفرق شعر رأسي، ساعتها لعنت المرآة ونقمت من صانعها، وغاب عن خاطري نعمتها .. حين عكست الحقيقة وأوحت إلي أنني في مفترق الطريق ... كان بإمكانهم أن يتركونا نعبث في براءة وسذاجة ولا نرى أبعد من أقدامنا حتى أثقلونا بالنظر إلى المرأة. كل شيء واضح أمامي، وحلول منفردة من طرف واحد، وأكرر النظر وأطيل النظرة الأخيرة ففيها أمسك على خدين لم تداعبهما يدان دافئتان ثم أشدهما فيبان خطان من التجاعيد المفزعة في وجهي فأتراجع فزعه... إلى هذا الحد الإنسان ضعيف أمام تجاعيد الوجه.

أين التحدي وأين العنجهية!؟ وأين الصلف..!؟ كل شيء في ترهل مهما حافظت إلا الكرامة. العد والحساب، وأني أتذكر وخطواتي تتقدم وتطوي معها الشباب ونضارته والجسد ورشاقته كله سواء إن غرك الزمن أو توقف ولكنه لن يقف وعلى أية حال أنا قد أكملت الثلاثين ويزيد كم بالضبط؟ لا أدري .. سؤال أردتُ وعدلت أوجهه لأبي وفي يده زمام

أمري يساوم به ولا يرغب في أن يفكه إلا وأنا إما ملحودة في آخر شبابي، أو عجوز شمطاء تعيش عالة على غيرها تجد من ينهرها مرة ويتجاهلها أخرى لتجتث جذورها كشجرة لم تعد تثمر، أو تذبح كدجاجة لا تبيض.

أحزان لا حصر لها تحاصرني، وأحابيل أزمة لا يريد الإنسان أن يطهر نفسه منها، ولا يود أن تتحرر العلاقات الإنسانية من الأعراف والعادات التي تحولت إلى قيود وضعية لا تراعي الأخلاق ولا القيم – والخروج عن المألوف صار عندهم جريمة – ماذا أفعل وأنا أعلم أن الإنسان من غير قيم يصير مجرد قذارة، ولكني كالوردة إن لم يقطفها إنسان ويشم شذاها تذبل، وإن لامستها الأيادي تذبل، وإن بقيت زمناً طويلاً تذبل.. شيء محير مادام الإنسان لا يعرف له قرار..!

هزائم لا حدَّ لها منيت بها .. خسارة لا تعوّض إذا عشت بلا كرامة.. حينها أخسر نفسي وأصبح حديث كل ساعة. شعور مرير وخوف من سحق الزمن بسبب ما أفقده

في الحياة من دفء ونشاط شعور جنسي نتبادله من مسافات بعيدة وننشده ولا ينشدنا. قلوب ورقباء يسلطون أضواء هم على الفعل متناسين الدافع.

في حالتي القلقة ينتابني شعور بالخلاص من العفة ولكني أتراجع خوفا أن تذبح المشاعر، وتقطع الإنسانة التي بداخلي، غير آسفة على تراجعي في قرار واحد طالما أبي قد تراجع في قرارات كثيرة أرى أنه ضر أهل الدار كما ضرني.. سكاكين كثيرة من حولي أشاهدها وتود أن تلقاني طريحة، وكلها في أيدي ملوثة لا تقبل الأعذار .. كم كان إحساسي أنني الضحية وأحياناً لينتابني الشعور بالنقص، وتارة أن حقوقي قد اغتيلت حياة مليئة بالكثير من الأسرار والألغاز لا يفهمها إلا من يعيشها وحين يكتشف أنه مخدوع وأنها تحمل من الأهوال والمآسي في بواطنها مالا تستطيع الظواهر الكشف عنه، وفي أعماق كل منا لا يقدر الإنسان على تصورها رغم أنه يصنعها بنفسه.

كان يوماً، وكان لنا لقاء وليته لم يكن حتى لا يثمر دائماً كل هذا الفيض من الحب في قلبي.. ولكنه معذور فلربما أمري لا يعنيه، ولعله لا يعيرني انتباهه ولازلت أحبه. مشكلتي أنني لا أملك سلطاناً على قلبي، وعيبي تفسير الأمور لصالحي، ليس اعتقاداً بالثقة والتفاؤل، ولكني وجدته الإنسان الذي بمقدوره أن يحتضنني ويغدق علي فيض حبه واهبة له ما عندي في سبيل أن أراه سعيداً معي ولا يتسرب الملل إلى نفسه.. وأضحيت أدين له كثيرا فقد غير في مجرى حياتي وأفهمني بعدم التفاتته ثانية نحوي أن الإنسان جملة أحاسيس ومشاعر وعلاقات وروابط – وبقيت أخطو نحوه مجنحة بالأمل ومتطلعة للغد، ولكني قلقة في مجتمع مريض بوعيه المزيف أتحرق شوقاً إلى لقائه، وأجد صعوبة بالغة في السيطرة على نفسي وأنا أتخيل نظرته تشك صدري.

الثورة داخل رأسي لا تفجره، وهواجس تختلج في الضمير وقد صار شغلي الشاغل لا أهدأ ولا أستقر .. لكن هناك قلوباً لا تعرف الرحمة، أنانية تعيش لأجل ذاتها تأخذ

ولا تعطـي، وتهـدم ولا تبنـي .. وكـان لنظراتـي اسـتنكاراً ولحركـاتي اضـطراباً فأحسسـت أن عقلـي بـدأ يسـتيقظ مـن حساسـية الواقـع الـذي نعيشـه وأننـي إنسـانة يجـب أن تعـيش حياتها، ولكن.. ماذا يمكن أن تفعله فتاة مسكينة مثلي تضع البرقع على وجهها عندما تشاهد رجلا يظهر في التلفزيون مثل صويحباتها، مستبيحة لعينيها النظر. فيختلط أمام عيني العمل الصواب بالعمل الخطأ وأنا أحاول أن أقلد ما يروق لي أبعث ما قد حرمت منه.. لكن الله يلهمني أن التقليد في كل شيء نار تحرق الأخضر واليابس لأعود وأنكفئ على ذاتي أحاسبها لأنها لا تعرف أن تتجرأ فتظل الحسرة تقتلني والأمل يعاودني وعذاباتي تتوالى حتى لم يفصل بين السقوط والثبات سوى بصيص شعاع خافت هو الفضيلة لازال في النفس باقياً ويمنحني الزمن بها. لم أعد أفكر إلا في جهاز يكون داخل بيتي ولا يعنيني إن كان للإصلاح أم للإفساد.. وسيظل ذلك مجرد تفكير إلى حين يصبح لي جهاز ورأي..

انكفأت على نفسي، وخجلت، لم..؟ عندما مررت من غير حذاء. أنا لا أعرف أن ألبس سروالاً، ولكني أضع على جسمي أربعة أثواب متتالية، ونقاب ألفه حول رأسي ومنه برقع وجهي، فلا يظهر سوى السواعد والسيقان وعيناً واحدة، هذا كله ما أبحناه.. ماذا سيظن بي وأنا حافية القدمين، وأثواب لا لزوم لها تضايق جسدي وحياء غير الذي في نفسي، ومشية لا هي مفتعلة ولا لها معنى وصور ذهنية مثيرة ومدهشة تتوالى أمامي ابنيها وأحطمها!

أحرقت أظنانا من الصبر، حتى ضقت ذرعاً من الانتظار إلى حد اليأس، ولما جاء الفرج وتقدم لأهلي شاب يخطبني، أقاموا عليه شرطين أن يدفع مبالغاً كبيراً، والبقاء في بيت أهلي، فولى وتزوج ثم اغترب.. وتقدم الثاني من قريتي ورفضه أبي معتذراً بأنني لازلت صغيرة وحقيقة الأمر انه يخشى أن يفقد عملي في الأرض وأعمل في أرض من يتزوجني .. وحين أنهك طول السهر القمر أقبل رجل في سن والدي، عريس جاهز وفق الشروط – ولكني هذه المرة أنا

التي رفضته ألحوًا علي.. هدَّدوني: سأظل عانساً فلم أرضخ لهم .. شيء مضحك! فهل أنا ابنة الستة عشرة ربيعاً، ورفضته وأنا كارهة ولكني فكرت في تحقيق إرادتي فانتقمت من نفسي وثرت لها في آن واحد وسياط الألسن تلهب ظهري، والأظافر القذرة تحاول أن تخدش وجهي.

يا لها من مفارقات، هل يعود الأمل بعد اليأس؟ ها أنا ذا اليوم أعود لحنيني، وأتشبث به، حين اكتشفت في صمته حبا مكبلاً يمدني بالقوة، وسأعيش بالذكرى، وأنني انتظر .. فهل يسمعني.

أكتوبر ١٩٨٧م

عنق الزجاجة

ما إن دخل مكتبه حتى أحس بانقباض جعله يتوتر، وتزايد في نبضات قلبه رفعت من حرارة جسمه.

الشمس مشرقة، والفصل ربيع، والهواء عليل والمكتب نظيف، والساعة قد جاوزت التاسعة صباحاً ... تهالك في مقعده الوثير منهاراً.. طلب كأسا من الماء وفنجاناً من الشاي.. سحب أحد الأدراج وأخرج قارورة. للشاي وصب منها مشروباً روحياً وأضاف إلى الكأس قليلاً من الماء وأخذ يترشفه، ثم أعاد القارورة إلى موضعها. أشعل سيجارة وتركها بين أصبعيه حتى لذعته نارها وتأمل رمادها فوق الطاولة ثم فرقعة بعقب السيجارة. دعا الساعي، فمسح له الطاولة واستبدل فنجان الشاي الذي برد. أمسك القلم وبدأ يكتب .. توقف مذهولاً.. صار يرسم أشكالاً غريبة، ما معنى هذا وكيف حدث؟ لا يدري. كل الذي دار في خلده أنها تحبه ولا

يفرقهما إلا هذا الحاجز الخشبي الذي استعصى عليه دكه خوفاً من الحرج في الحين الذي لم يستعص عليه تحويل قلمه مفتاحاً سحرياً للخزينة التي تقبع في الغرفة المجاورة. حاجز عنيد يعترض طريقه ولا يتزحزح، ولكنه لا يعترض على الملصقات خوفاً من أن يقتلعوه، وتراءى له أن الحاجز قد اتفق معهم ضده. فهم يستكثرون عليه أن يعيش لحظات حب معها، ويحسدونه على اجتماع المال والشهرة والجمال. بعضهم عرف مواطن ضعفهم واقتنص زلاتهم حتى احتواهم وأصبح زمام الأمور بقبضة يده يأمر وينهي وبقصاصة ورق يزيح ويرفض الجديد ويسحب النقود. استرخى فوق مقعده وهو يتدبر الأمور كيف ستجري معها .. نهض، اتجه نحو النافذة، أقفلها، شيء يتم من وراء حجاب. قرر أن يزيل الحاجز الخشبي وكل العوائق التي تقف في طريق تقدمه. جلس وأشعل سيجارة ثم ضغط على زر الجرس بعد أن صمم على حسم الموقف.. يتصاعد الدخان من السيجارة ويرتفع حتى يتلاشى.. وأقبلت إليه، وقف مبتسماً ومد يده مصافحاً فمدت

يدها لكن اليدين لم تلتقيان، فمد جسمه اكثر فوق الطاولة فتراجعت قليلا فتعثر ووقع تحت الكرسي، نظرة لوم وجهها إلى الكرسي، ثم تمالك نفسه، واستعاد هدوءاً مصطنعاً وجلس على مقعد آخر وجلستْ يفصلهما مقعدان. اختلس النظر. إنها تنظر إليَّ من أسفل، عيناها تؤكدان لي أن لها نظرة خاصة في مثل هذه المواقف. بكل تأكيد هي تفضلني على سواي حتما سنتفق.. هذا هو إحساسي الذي لا يخيب.. كيف أبدأ الآن؟ كل شيء بداخلِ ملابسها يشير عليّ أن انطق .. لكني احس انني غير مستقر على مقعدي الاستقرار أولاً؛ ها هي تضع حقيبة صغيرة كانت تحملها فوق كتفها الأيسر، ليتها تسمح لي أن أعيدها إلى مكانها .. جسم بض وغض يهفو، أعضاء خرساء لا تتقن الاسهال اللفظي بقدر ما تجيد الممارسة.. جميعها مواطن للإحساس واللذة اللسان وحدها هي التي ستقربني وتجعل المرء يرقص على كل الأنغام ويغني في كل المناسبات، الأسلوب، وهي حرباء توفر فرصة الانقضاض والانتقاء والإتهام والتراجع والاحتماء على حد

سواء.. ها هي بدأت تتململ وانتظارها سيفرض عليها أن تبدأ.. ولكن عادة النساء في مثل هذه المواقف لا يبدأن.

– لقد طلبتني.

أذهلته المفاجأة فداخله الارتباك وهو الرجل القوي الذي لا يتراجع، ولا يراجع نفسه .. يقدم لها الماء والشاي وهي ترفضهما. وكاد أن يقدم لها سيجارة بمحاولة جديدة أو كأساً من القارورة لولا ضحكة أطلقتها جعلته يتراجع معتبراً ذلك بداية الانفتاح.. وعرض خدماته.. أجر درجة شاغرة، علاوة وأضافي بدون عمل، وإجازات تحسين مستوى معيشة دون الرجوع إلى نقابة. ظلت صامتة وهي تدرك أنه لو نال الإنسان (ولن ينال كل ما يتمناه) لفسدت الحياة ولم يعد لها معنى. أمسك بالقلم وأخذ يواصل الرسم على الورق كأنه يكتب شيئاً هاما وخاطبها وبصره فوق الورقة والقلم بين أصابعه: انتظري لأفرغ مما بين يدي:

– مهما انتظرت فلن تفرغ.

وتوقف عن الرسم – فقالت له استمر واستكمل أذني الحمار.

– هل تعرفين هذا الحيوان؟

– بكل تأكيد ..!

كيف خانني التعبير، ماذا تقول الآن عن حالتي القلقة، أربعة أحرف لو نطقتها في لفظة واحدة لأصبحت منذ اللحظة راضية مستسلمة. حتماً الوجنتان متوردتان والخصر نحيل، والحوض عريض، والنهدان بارزان يبدوان لي من بروز نحرها، أخذت تعتدل في جلستها، أخشى أن تذهلني ها هي تغير من وضع الخمار.. هذا حسن، وتمسك بأهدابه وتلقيه فوق رأسها إنه المنى.. شيء محزن أن تستبدل بطرف العباءة الخمار لتسدل الستار على أنفها وفمها، لم أعد أرى سوى عينين وضاءتين وأطراف مقلتين كحيلتين، وبوادر ابتسامة عرفتها عندما رأيت عينيها تضيقان. بيضاء وجميلة، ومقياس الجمال عندي الأنف والفم. حبذا لو دققت النظر فيهما

عشرون يوما مضت من وجودها ولم تفهمني – أم أنها يطيب لها الإذلال. كل بواعث القوة في يدي. إنها تحملق وبعد لحظات ستصفني بالجبن إن لم أقم بأية بادرة إيجابية، كيف تراودني كل هذه المخاوف وأنا فارس لي صولات وجولات حققت فيها نجاحاً باهرا، باستثناء تلك التي قمنا بتسوية الموضوع وحفظنا ملفها في الارشيف طعاماً للفئران حتى لا يبقى شيء عالق .. شيء لا يصدق حين نقلب الموقف لصالحي ولكنه حصل وأُكافأ بدل الجزاء.. حينها أحببت التغيير حتى شمل استبدال الجديد من البطاريات وقطع الغيار يغيرها وتحويل كوبونات البنزين إلى نقد بدأنا بالصغار وكبرنا وتعودنا على حل أصعب المسائل بعد أن أوجدنا من يرضى عنا (ويا بخت من نفع واستنفع). لكن مسائل النساء فيها عقدة.. معرفتي أنها لا ترى زوجها إلا في الشهر مرة، هل يكفيها هذا!؟ وتحرياتي تقول أنها تحب الشهرة والمشاريع المربحة مثلي رغم أن طموحاتها أقل من إمكانياتها هل أنا مبالغ في مصادر معلوماتي.. عليَّ القيام بمبادرة محكمة لا

يخر منها الماء، دقائق معدودة من الإثارة وتستسلم بسرعة. دعاها للاقتراب بقيت في موضعها، سعى نحوها وجلس فوق مقعد بجوارها، فتح مجلة غريبة.. وأخذ يقلب صفحاتها وهي لا تنظر، أشار إليها ودعاها للنظر والاستمتاع مؤكداً لها أنه قمة التطور ومن طبيعة المجتمعات المتقدمة صور جنسية عادية – نفس ما يحدث بين رجل وامرأة في كل المجتمعات... وأطنب في الشرح والتوضيح حتى وصل إلى الملابس التي تضايقهم فيتحررون من قيودها. اقترح عليها أن تزوره في البيت ليبهرها بمكتبة عامرة بالتسجيلات المصورة – ومال بجسمه نحوها فسحبت نفسها إلى مقعد آخر. أظهر تضايقه لأنها لم تسلم له القياد ولكنه ابتسم وقال:

– متى سنتحرر!؟

– بل متى سننحدر!

– هذه أفكار رجعية قد عفا عليها الزمن، وأنت لازلت بها متشبثة.

– هل لي الآن أن أذهب لأواصل عملي.

في قرارة نفسه سخط عليها، ومصمص شفتيه ثم مر عليهما بلسانه وانحنى مقارباً ما بين شفاههما محاولاً إذابة الجليد، وفل الحديد، ليمهد الطريق.

انحرفت جانباً، فتراجع وثار حنقه خوفاً من الفشل... وحملق فيها وأخذت عيناه تلمعان لمعاناً غريباً! حتى صار سنها الصغير وبراءتها وكرامتها بين أربعة جدران مجتمعة مع الانتهاك والاهتاك .. بضع دقائق وتتحول من حال إلى حال احتوت المكان فكرتان متناقضتان حين اندفع نحوها وأمسك بعضدها .. تملصت منه وقالت له: أين ذهبت أفكارك؟ هل نسيت أنك قلت يومها: (إذا كنا نحن لا نسمح للإنسان أن يرتكب خطأ في حق نفسه، فكيف يسمح لنفسه أن يرتكب خطأ في حقوق الآخرين).

– لن تفلتي، أنت مثل واحدة منهن – كل العاملات مثل بعضهن.

– هذه مسائل نسبيَّة، ولكن ماذا عن العاطلات اللاتي هن أكثر من العاملات عدداً!؟ أنت بحاجة إلى رثاء..!

– امنحيني فرصة واطلبي ما تشائين.

– أريد أن أخرج من هذا المكان، فأنا أرفض الرجل الذي يرتضي أن يكون معه شريك في زوجته.

– أنت باقة ورد شذيّة، قد دخلت مزاجي، ولن تخرجي منه إلا بعد أن أنتشي.

اتجهت صوب الباب، فاندفع نحوها وهو يحاول الإطباق عليها. احتمت بأحد الكراسي وارتطم به فاهتزت الطاولة وسقط الكأس وتهشم فوق رأسه محدثاً صوتاً... أحس ببرودة في رأسه فتحسسه بيده ونظر إليها، فلما رآها مصبوغة بالدم، قام ثائراً في الوقت الذي دفع فيه الساعي الباب ليرى مشهداً غير مألوف...

مارس – ١٩٨٨م

بعدما طال الانتظار

علمت بقدومه حيث وطأت قدماه أرضي فرجوت من ربي الثبات عند اللقاء، والتقدم خطوة تشجعه ليهمس شيئا يطمئنني ويريحني من العذاب، ويشعل في نفسي شمعة الانتظار الطويل منيرة الطريق أمامي، كي لا تكبح جماحي وأكبو.. ونحن نحس بمتعة اللقاء ولو من بعيد.

إلى متى والدموع في عيني، صراع بين رغبة وامتناع، دوافع توجه سلوكي وضبط يعمل على تنظيمه وكفه. صراع يقوى حين تقع يداي فوق حلمتَي ثدييَّ فأحس بضمور هما. كم نمتُ، واستيقظتُ، وما بين فتح العينين والنهوض تخطر وتحدث أشياء من الاستبشار والخوف. الحب لا يرضخ للكبرياء، وهؤلاء لا يرحمون.. حتى الكلاب الجرباء لا تسلم من نظراتهم الملتهمة والقاسية، وأنا تضيء قلبي اللمسات لا النظرات.

اختلجت لواعج نفسي لسماع النبأ.. أحسست أنني ألهث في مكاني من عناء المسافات التي قطعتها، والدروب والمسالك التي اجتزتها دون الوصول لغايتي. لا حول لي على قلبي، ولا سلطان على نفسي، أبداً.. كل الموانع تجمعت في عقدة لساني، وخطواتي تخذلني وتركعني أمام التقاليد. درت أسأل نفسي فليس بالضرورة أن يفاتحني على الأقل يشعرني ما دمت أحس بميله نحوي. الإحساس عندي لا يسقط كما تسقط أوراق الأشجار الخضراء واليابسة في دورة الحياة.. فمتى يحلو ويسرني ويرتب العبارات الممزقة ونتحد في كيان واحد نسمو بالحب الكبير ونحتضن العيال الكثير.

ما زلت جميلة.. طرية ندية، وممشوقة. رشيقة الحركة.. لكن وجهي تكسوه مسحة من الحزن كما قالت صويحباتي. اعتراف من النادر أن تقربه امرأة لمثلها حتى وإن كانت الحقيقة عينها التي اختلطت وتاهت في الزمن الراقص.

قررت أن أتشجع وأنا أنظر في المرآة. رأيت بضع شعيرات بيضاء برزت في رأسي عن العام المنصرم من جراء

القضية المحفوظة، ولكنها لا تنقصني في مجملي قيراطاً واحداً، ولكني فضلت أن أقتلعها فبقاؤها سيثير تساؤلات وأحكام عند الأخريات حين نغتسل في البركة مجتمعات نتحدث، ونقفز في الماء ونفعل أشياء تقشعر لها أبداننا، وسرعان ما ترتخي مفاصلنا ونفتر.. هن يتحرقن شوقاً لملاقاة من وددنَ ملاقاته، وكن يفضلن لقاء الصدفة والهجوم المباغت على حفيف الأشجار أو ظلمة الزقاق ويتوخين أن يبدأ وينتهي من غير أثار أو بصمات – شرط مسبق بحاجة إلى وفاء – حتى لا يتكاثر المتشردون ويلتهمون الكلمات ويلتحفون القمر في ليالي الشتاء.. ويرفعن أبصارهن ويتنهدن ويسترن ما نفا الثوب منه، ثم ينهضن نافضات أثوابهن مما علق بها من قش وروث الحمير. ولكنهن لم يصلن بعد إلى السير متخبطات معترضات السبيل.. وتظل الأماني مجرد أماني ينميها وينوعها الأمل في الأيام القادمة، لكن الشعور بالمرارة يغذيها. نحاول أن نصحو ونفهم حقيقة أنفسنا حتى لا نفجع بالطفرات في عالم متحرك فتضطرب خطواتنا ويصير

التوازن مفقوداً في حياتنا، لنبقى فوق قوس المعصرة دائرات حتى فقدان الوعي، فنرتمي كتلاً ويبقى العصير. خسارة أن نفيق على نهش المسعورين ونستجير فلا نجار فنعاود الغيبوبة من جديد.

دفعت الباب بقوة.. خطوات وكدت أطير لملاقاته لما رأيته أمامي.. ولكني مكسورة الجناحين، فخلته يفتح ذراعيه وأنا مندفعة نحوه ضامة رأسي إلى صدره فيطوق كتفي بيسراه ويمسح على شعر رأسي بيمناه ولكني في مكاني.. قلت ذات مرة (أنني أنتظر فهل يسمعني).. لعله جاء ملبياً للنداء لحظة اندثرت معالمها، وتلاشت بهجتها، وخبا بريقها. أراد أن يطفئ الشعلة الباقية المتوقدة في نفسي، يمحو كل جميل صار أمام عيني أنظر إليه وأملئ .. به نفسي. فقد أحنى رأسه وراح يضرب فخذه بيمناه.. وفي نفسي تساءلت هل هذه رجولة؟ كيف سيحميني ويجعلني أحس بفحولته، كيف بالله يعرض وأنا مقبلة نحو؟ ووجدت له العذر حين أحسست بالجواب عندما التفت ورائي إثر قهقهة خفيفة قصيرة ندت عن اثنتين

كانتا ترصدان خطواتي يبحثن عن سبب أو مدخلاً للتشهير في مجالسهن أو في لقاءاتهن عابرات حين صار التربص ووقوع المكاره لبعضنا يفرحنا ويزيد من غبطتنا التشفي، وتتفطر أعضاؤنا لذة ولا نتفق، وكل ما نفعله هو أن نكتم ونضغط على قلوبنا، وكل المباح لغيرنا في نظرهم علينا حرام. حتى أن نهفو ونحب أو نأسى .. ولمعت في ذهني فكرة تولدت بعد سكره، ماذا لو كلمت والدي ليخطبه زوجاً لي سبق وأن حدث هذا وأكده أجدادنا حيث قالوا (أخطب لابنتك ولا تخطب لابنك). من سيقبل هذا المنطق اليوم والدولار يقبض على نياط القلوب ويصير من الصعب أن يفهموننني ومن السهل أن يتهمونني بالفجور والعقوق والجنون. لتسير الأمور وفق مشيئتهم، يؤولونها على أحكام مسبقة وقد ترسخت في أذهانهم، وحين يلاحظون بوادر الطموح والصدق بلا جنوح يتمسكون بالفضيلة التي يدارون بها حماقاتهم ويتمسحون بأثوابها وتكثر مراقبتي ومضايقتي والتهامي

وإفسادي في آن واحد. ألوان زاهية ومظاهر كذابة خداعة لا تنم عن جوهر وتصبح أشكالا بلا مضامين.

لم أعبأ بهما وبقيت أشجعه بنظراتي إلى أن اتخذ لنفسه بين الآخرين مجلس. سخطت وعدت مسرعة للدار، واستبدلت بملابسي ملابس أخرى مبخرة، فجذبت الروائح الشذية أمي من المطبخ مندهشة ظانة أن ملاكا في دارنا ولكنها سلطة سياط لسانها تضرب عقلي وأعصابي فابتسمت بنشوة الفخر، وهدأ من روعي الزهر الذي يشد ويجذب أسراب النحل إليه بروائحه الذكية. هززت ردفي واستدرت جهة الباب والابتسامة لا تفارق ثغري وكانت رداً لتساؤلات أمي التي لم أرد عليها بكلمة واحدة واندفعت بملابسي الخامرة.. خطواتي مسرعة والمسافة تقصر لحظات وأحسست بثقل رجلي وأنهما لا تساعداني على الإسراع فقد عاودني التردد الذي يقودني دوماً إلى الخيبة. وشددت عزمي على تحدّيه بإظهار بعض مفاتن أنوثتي.. نسمات تخفق بأطراف ثوبي وتنقل للعيون تموجاته وعلى الأنوف رائحته ومشيت في خيلاء وغرور كما

تفعل بنات الطبقات المترفة اللواتي تتجمع عندهن أنواع الشرور وبدايات الانحدار والنزاهة المزيفة. وخانتني قدرتي على التحكم فرجلاي ترتجفان، وخطواتي تضطرب وتمكنت رغم ذلك من المرور أمامه وتناهت حينها إلى سمعي أنات وزفرات وآهات وأصوات غير واضحة ثم صفير. لم أغضب وتيقنت أنني مرغوبة حتى بعد الخمسين – ونسيت أنها غريزة – مساكين دائبون على نمط واحد يجتمعون كالدراويش في حلقات متفرقة، يلفُّون العمائم حول ظهورهم وركبهم ويتهامسون ينهشون في أعراضنا ويبيعون من غير مقابل – ونحن من نطف في لحظة شهوة قذفوها ثم أهملوها – كنت حينها قد رمقته بنظرة عاتبه فحدجني بنظرة صارخة..

سمعت وقع الأقدام خلفي، وكانت مفاجأة لم أحسبها فأسرعت الخطى.. ناداني، فأذهلني.. وأنتابتني الحيرة واختلطت علي الأمور ولم أعد أدري ماذا أريد بالتحديد... طلب وقوفي .. بقيت أمشي، وتمنيت أن يأمرني لا أن يرجوني. نبهني للفرصة وحذرني من الندم على تفويتها.

تـذكرت حينهـا الفـراش والوسـادة، وخلتـه يجيـد لعبـة السـادة، وتصبح الحقيقة واقعاً رهيباً. طردت هذه الفكرة من ذهني لأن قلبـي ينـوي شـيئاً آخـر وتصـورت أنـي مهمـة ومرغوبـة عنـده وتمهلت .. وقع أقدامه تخفت في أذني! فظننت أنه قد توقف، التفت نحوه وتقدمت خطوات.. حدقت فيه بعيني العسليتين نظرة عتاب هو لم يقل لي إن عينيك عسليتين، ولكن ازداد ثباتاً واعتداداً بنفسه، ولكني وجدت في نظراته تساؤلاً عن ملاحقتي له وكأنه يريد أن يشعرني بخلاف ما تتمناه نفسي ويريده هو لقد فات أوانه وكان سؤال يجب أن يقال في زمان مضى.. أما هذه فيجب أن تؤرخ صرت مشجونة ونويت قذف الطهر بالرجس وبوادر السكينة تتخلل أضلعي وهو مستمر في فتل شاربه بالسبابة والإبهام، وقسمات وجهه تنم عن الشهامة وبريق ذكاء في عينيه رأيت فيهما نفسي الضائعة. صرت أمامه ولم أخسر نفسي بعد ولكن شأن عيني يجري الدمع فوق المآقي. أخرج من جيبه منديلاً وفرده بأطراف أصابعه ومسح به على عيني السبلاء، رفعت ناظري

ونظرت في عينيه فإذا هما عميقتان بلا نهاية ورأيت فيهما البسمة ومتعة الحياة وخلته قرأ مخبوء الضمير.. فتخلى عني حرج الإحساس بالوحدة، وظللت مفتونة متلهفة لضمه لكن هيهات. المرأة تكتم سرها وتفشي سر غيرها، كما تختلق للقسوة عليها أعذاراً ومع ذلك لا تقبل الإهمال. فكان بيني وبين المرآة سر رهيب يزيد عما كان بين أمي وصفحة الماء الهادئ المجتمع في عطفة الساقية ابتسم وأعبس، وأكوت تعابير مختلفة أمامها وأصوّر لنفسي الصورة التي ارتضي أن يراني فيها وتنتابني المخاوف وأظن نفسي لم أوفق في رسمها فما أراه مناسباً ربما كان غير مريح عنده.. وأبقى ساعات أمام المرآة لا تود أن تقول رأياً نهائياً، ولا تحب أن ترحمني من إطالة النظر فيها. كم مرة ودت أمي أن تهشمها لتحرمني من رؤية نفسي لأظل في عينيها كالثور المسن الذي تضاءلت وتلاشت وظيفته ولكنها لم تنته في ذهن أمي. طوال السنين الماضية لا تفهمني، ولا تريد أن تصلح لي حالي

طالما كل شيء في يدها حبي وكرهي وعنادي وهداي وضلالي.. وأظل كما كنت محرومة ومهملة ومحاصرة.

السيولة النقدية التي ضمتها الصناديق القابعة في زوايا البيوت لم نكن نحلم بها. وصارت أسلاك الكهرباء موزعة داخل الجدران، وأمسى التلفاز يحتل ركناً في الغرفة. أبي كان يعترض على خروجي لمشاهدة المسلسل قبل أن يكون لنا تلفازاً ولكني أتسحب وأخرج لنتفاعل نحن الأتراب بأحداثه.. مسلسلاً تلو الآخر، حيث نتجمع مع غيرنا من الجنسين أمام الجهاز الوحيد الموصل (بالفيديو) ويعمل بمولد كهربائي خاص نصفان وبينهما حاجز من الحديد المسلح، كم ملأ قلبي الغيظ، وكم نظرت شزراً إلى والديَّ وهما يربطان كل حياتي بحياتهما .. لكن انتمائي يغلبني فتمتلئ نفسي محبة لهما وعطفاً ورثاء وتنهمر عيناي بالدمع هذا الذي أقدر عليه حين أضبط نفسي وأضعف.

نسيت نفسي وأصبحت أشكو معاناتي بدلاً من أن أبث أشواقي إليه، وامتلئ بمحاسنه وهو واقفاً أمامي يتكلم وأنا

أنصت وأسمع وابتسم، فينظر إلى ثغري وأنا حالمة بأيام السعد الآتية. شدتني بقوة ابتسامة عريضة تبينتها من اتساع ما بين قديه وسرعان ما أخفاها بغمزة لوامة فأثارت الشجن حين لامست ما فوق نياط قلبي – وأحسست بالتعب المضني لطول الانتظار، والوقوف والغدو والأصال المتكرر باحثة عن راحة البال وسلا الخاطر دون جدوى وصرت ضالة تائهة في فضاء كوني واسع أسبح بلا توازن، وفي بحر عميق أعوم فلا أغرق ولا أصل إلى شاطئ.

وصرت ضنكة ملوله باحثة عن السكينة وراجية الأمان.. وأبقى معلقة أصرخ مرات متتالية بصوت قوي: أن يخنقني الشنَّاق فلا أسمع إلا نفسي وأصداء ترجع وتخترق أذني، فأصكهما بيدي وأظل أجري حتى أعيى وتخر قواي فأرتمي منهارة كجثة عافتها الكلاب لأنها لم تصبح رمَّة بعد.. وذعرت ليس من نباح الكلب الذي يراقبنا لنبتعد عن العظم الذي يتشمم رائحته حيث غنمه في معركة دامية بينه وبين كلب آخر رمى به أحد المتنزهين الساهرين المتفرجين

على الآلام للذين لا تعنيهم مناظر ولا إبداعات في الطبيعة بقدر ما يعنيهم كم فتنوا وكم كسبوا وكم لحماً أكلوا وكم خمراً شربوا .. من السيارة إلى الغرفة ومن الغرفة إلى الماء يلوثونه بأقذارهم الملونة ثم إلى السيارة ناهضين.. ولكني تيقنت أن نباح الكلب نذير بشخص قادم إلى العطفة التي تقف في منتصفها .. التصقت بالحائط، ولفيت نقبتي حول وجنتي وأدرت ظهري للقادم، ومر بجانبنا وسلم علينا .. صمت مطبق خشيت وارتجفت أن يكون قد عرفني فأكون حديث الساعة وتبقى وصمة ومثال للتشويه أو التحذير بين وقت وآخر. ظل مبلما محملقا في ذهول ثم سألني سؤالاً ظن أنني متمرسة على إخفاء شخصيتي، وضليعة في التنكر، ولم يظن أنني أحسنت التصرف. تجاهلت تلك الإهانة، وعبرت له بأن لي وجها واحدا.. ولكنه لم يصدقني ولمح لي ببضع نساء في المدينة يلبسن ملابس الرجال ويخرجن بعد التاسعة مساء ليركبن السيارات المنتظرة في الأزقة ثم يمسكن بعجلة القيادة. حينئذ تيقنت أنني قد صغرت في عينيه، وتمادى قدس في

يدي ورقات نقدية تركتها تتساقط، وتبدلت من حال إلى حال، وتكدرت بعد صفاء.. ومع خطواتي المتلاحقة أسمع نداء ضعيفاً، ورجاء ذليلاً، ولكني لم ألتفت لأن شيئاً في نفسي قد انطفأ .. ولم أعد انتظر منه أن يسمعني.. فكلانا قد قدر الآخر خطأ..

ديسمبر – ١٩٨٨م

حصّة التاريخ

بداية العام الدراسي الجديد، ومع أول أيامه تتجدد الحركة، أو تبقى في سكونها النسبي، وما بين مبتداه ومنتهاه يتساءل الإنسان ما الذي جناه..؟

الحصَّة الأولى في الصف الرابع تاريخ. هكذا وضعت ووزعت إدارة المدرسة جدول مواد ذلك الصف بالذات لاعتبارات وضعتها في الحسبان من جهة مدرس هذه المادة حين تركته يقرر ويختار، لأنهم سمعوه يردد: قراءة التاريخ لا تكفي إلا بالاستفادة منه قول معلن ورأي خاص لم يستطلعوه من سابق، ربما لأن كل تاريخ يعود إلى فجره، وفي الفجر تهب نسمات طيبة يتشممها الأصحاء الذين يصحون مبكراً وقد سبقوا إشراقة الصباح، أو لعله يتوهج مع ملامسة حرارة الشمس فيحترق ويذوب كالشمعة ليضيء شموعاً أخرى..

إسهال لفظي شاع عنه بين التلاميذ، وإجادة للكلام في كل شيء من غير أن يحدد كمية المعلومات. تتدفق الجمل والعبارات من بين شفتيه سيلاً (كالالكترونيات) التي تؤثر ولا تلحظها ولكنها تنتج طاقة أخرى .. بينما يصيبك بخيبة الأمل إلى حد اليأس. هكذا وفي أول يوم تناهى إلى سمعهم ترهيبه قبل ترغيبه وعلا سوطه فوق صوته. وتساءل مدرسان لم يبديا ارتياحاً له:

- هل يجيد السباحة؟

- مع تيار الماء

- ..... ؟

- يميل إلى الزيغ.

دقات الجرس ترددها جدران المدرسة، فتزداد دقات قلوب التلاميذ متهيبين وقد عافوا تبادل الهمسات حين أخذت شفاههم تتباعد وتنطبق قائلين شيئاً، ولكنها تأبى.. وتبقى

محتارا في معرفة مخبوء الضمير وما يكنه هؤلاء الأطفال الصغار الذين لا يلبسون غير أثوابهم. سمعوا خطوات قادم في الممر، مدوا أعناقهم وحبسوا أنفاسهم..

– كان ذلك مدرس اللغة العربية وقد تجاوز صفهم ومن جديد صغوا إلى وقع أقدام يزداد وضوحا كلما اقتربت. اكفهرَّت وجوههم، وسرعان ما اصفرت، وهبطت بطونهم فأحسوا ببرودة تسري في أوصالهم كأنهم يركبون طائرة انخفضت فجأة بعد ارتفاع. وتقافزوا واقفين وارتطمت أجسادهم في الأدراج وبعثرت أيديهم الكتب – واختلطت الأصوات، ثم ساد الصف صمت رهيب .. حدث ذلك عندما أشرفت أُولى قدميه من باب الصف. وصوب اللوحة وقف متجهماً مولياً التلاميذ ظهره، دقيقة، دقيقتان استدار بعدهما موزعاً نظراته بينهم والكل واقف وأياديهم معقودة خلف عجائزهم وكأنهم ممسكون بشيء يكاد يقع منهم يحاولون إخفاءه كي لا يثير حرجا لهم وعيونهم تفيض بالدمع تحسراً على الجلوس. اطمأن إلى إرهابهم وإذلالهم، فداخله شعور بالانتصار، وأحس بالارتياح.

خمس دقائق، إشارة من اليد اليسرى جلسوا، إشارة من اليد اليمنـي وقفـوا، إشـارة ثالثـة وقعـوا أرضـاً .. عيـون تتقلـب، ونظرات متسائلة، تـلاه انسحاب إلـى فوق المقاعد.. فأعادوا ترتيبهم. تأمل الحركة، ودار فكره يعمل في اللحظة المناسبة وابتسم على كثرة اللحظات المناسبة التي تواتيه والتي كثيراً ما يكسبها – طالما والغاية تبرر الوسيلة – ومع هؤلاء الصغار فالمكسـب مضـمون حيـث الحصـار مضـروب بالجـدران الأربعة.. قليل من التفكير وسيهيمن على المشاعر ويبتعد بهم عن الأزمة الكامنة في تناقضات المجتمع ويخرجهم من دائرة التاريخ الحقيقي.

(الطباشير مادة كيميائية تؤثر على الصحة، اللوحة وسيلة لا تتناسب مع عصر الرفاهية والرخاء.. من الآن وصاعداً العطاء والتلقي من القلب إلى القلب.. لا حاجة إلى الدفاتر، والذي يمشي على أربع يتعلم ويفهم. والدراسة بين الجدران كالعفاريت في قماقم سليمان .. لابد وأن تكون لديكم انطلاقة..)

عنوان الدرس العهد الزاهر في عصر هارون الرشيد، أنتم تعرفون ذلك العهد ولازلتم تتذكرونه مع ما كان قبله، ولعلكم تتشغلون بالتفكير لتوؤلون ما بعده.. وطالما أنتم بناة المستقبل وحماة الوطن لا ترهقوا أعصابكم ولن يستطيعوا منعكم من ممارسة حقكم المشروع في الامتحانات، والمراقبة ذاتها فكرة استعمارية، وأولئك المراقبون أباطرة، يحدون من حرياتكم، لأنكم قليلو الحماس.. على أية حال العناوين غدت مملة لاختلاف مفرداتها وتشابه مضامينها.

تنحنح وأصلح من هندامه، بعد أن قرض أظافره بأسنانه الملوثة، وجلس فوق الكرسي واضعاً رجلاً فوق رجل. اتكأ ظهره على خلفية المقعد فأحدث صريراً .. اعتدل وقال مخاطباً التلاميذ المحملقين في ذهول للأسف كم مرة يعاد إصلاح خلفية الكرسي، ولكنها تأبى إلا أن تظل هكذا – شيء ما فيه رديء –.

رفع تلميذ اصبعه فأشار له بالوقوف فقال: نتفقده فأنت تتكئ، نستبدله أنت جالس عليه والأنسب أن نهمله حتى يتداعى..

وهم أن يبطش بالتلميذ فنزل التلميذ تحت التخت وتمالك نفسه وصاح بكل ما أوتي من قوة في صوته: انتباه السؤال: من هو العظيم فينا؟ ووقف شامخا مطمئنا ومتأكداً أنهم سيشيرون إليه مجتمعون في الوقت الذي غدت فيه الأشياء غير مطمئنة وأصبحت غير مؤكدة، نهض أحد التلاميذ ورفع رأسه نحو سقف الحجرة مشيراً بأصبعه: هو ذاك يا أستاذ.

لم يكلف المعلم نفسه عناء رفع الرأس والنظر من أسفل لأعلى، فهو لم يتعود النظر إلى الشمس وهي في كبد السماء ساطعة! كل الذي يعرفه هو أن أمه تمسح على رأسه، وتغسل له ثيابه كلما لطخها، ولا تنهره عندما ينتزع بالقوة حاجيات الأطفال الصغار في الشارع – يبدأ اللعب معهم وسرعان ما يسطو ويصرخ عالياً حتى يبتعدون عنه مؤثرين

السلامة – ونظر إلى التلاميذ نظرة حادة تحمل في إرسالها إنذار بعقاب آت أو ترسيب في الاختبار المقبل إن لم يخفض اصبعه ويشير إليه هو. أخرج لسانه، وثناها إلى أسفل مشيراً إلى نفسه لعل التلميذ يفهم الإشارة ويغير رأيه. لكن براءة الأطفال وصدقهم أعطت الثبات ليد التلميذ التي ما انفكت اصبعه تشير إلى سقف الحجرة وسقط الأمر في يد المعلم، ونظر إلى وجوه التلاميذ فإذا رؤوسهم تعانق سقف الحجرة، ورفع بصره إلى أعلى، فقال التلميذ:

– ذاك العنكبوت

أطلق المدرس ضحكة، واستمر يقهقه ساخطاً، فعج الفصل بالضحك ليعبروا عن مشاركتهم واختلطت الأمور. ولم يعد يدري على أو من أجل ماذا يضحكون. أكفهر وجهه وصرخ فيهم قبل أن يستعيد توازنه.. وساد السكون .. لكن سبابته بقت موجهة كماسورة مدفع دبابة..

جريئون فوضويون مستهترون متى يصبحوا طيعين للوصول والحصول على ثمار الفصول المقطوفة.

التمهيد والمقدمات غدت تضيع وقتنا، وكل دقيقة بل ثانية تمر لها قيمة عندي. تأمل أحد التلاميذ وبحث عن معنى لإشارة الأصبع، هل هي للتعريف. أم للاتهام !؟ واستبان له أن معناها يتضح من ارتباطها بالفعل، ورفع اصبعه.. جال في تفكيره عما يريده هذا الطفل المغرور، هل يسمح له؟ هل ينهره ويكتم صوته؟ ساوره الشك في نية الطفل، والتمهل قد يخدمه ويفيده، فربما يكتشف موقفاً مغايراً، ورأياً مخالفاً. قال التلميذ في هدوء:

– ووقتنا نحن؟

لم يكن متوقعاً أن يطرح عليه مثل هذا السؤال، لأنه هو وحده تعود على طرح الأسئلة وتحديد الإجابة ولا يلتفت إلى الردود، ومع ذلك أشار للتلميذ بالجلوس وحرك اصبعه ثم يده اهتدى إلى إجابة (دبلوماسية) فأطنب شارحاً معمماً: إن

أنا تعني نحن، ونحن تعني أنا، والمضمون واحد ولا يحتاج الإنسان أن يشغل نفسه بتوافه الألفاظ والتراكيب .. ولا تكونوا دقيقين ف ي اللغة .. احفظوا المصطلحات السياسية. وصرخ فيهم: تصفيق وصفق التلاميذ حتى كلت أيديهم، ولم يتوقفوا إلا حين ندت عن شفتيه ابتسامة رضا.

أشار لهم بالنظر إلى جدران حجرة الدراسة، ونقل معهم نظراته، وتنهد وهمهم عندما لم ير شيئاً مكتوباً على الجدران إدارة رجعية .. لابد من شعار نحفظه وعلى الأجيال ترجمته لنا .. فتعالوا نبحث في الممرات والساحة العامة عن شعارات نتجاوز بها كل المعوقات. واستهوته لعبة المراء والتضليل في وقاحة تامة، وحلت له لفظة – تجاوز – عندما رأى معاني كثيرة تنساب منها تساعده كثيراً للتهرب بحماس لا إدراكي من مواجهة القضايا الحقيقية. لم يترك فرصة للتلاميذ يتبادلون النظرات المتشككة فأطلق صوته هاتفاً .. إشرأبت الرقاب المقطوفة في الزمن المتراجع حين غدا الفشل نصيب من لا يجيد لبس الأقنعة، وصار العريان لابساً والمستور

عريانا، اختلس من قميصه، وشد على طرفه بقبضة يده، ملوحاً به، وتصدرهم بعد أن صادرهم ومع تجاوب جدران الحجرة وجدوا أنفسهم يهتفون ويتحمسون في غبطة لأنهم تجاوزا غم الحصة. هذا حد تفكيرهم. وعلت الأصوات، وارتفعت الأيادي بالمناجل تحرث، ودارت الأجساد تدور تروس المكائن.. وتدفق العرق من ينابيع الجباه يروي حقول البرسيم المتسعة دون أشجار النخيل .. وبإشارة من يده تدافعوا هاتفين .. دق الجرس معلناً انتهاء زمن الحصة توقف التلاميذ .. صاح فيهم : لا تراجع.. وعليكم مجاوزة الزمن واكتساح العقبات، فالرجعية أمامكم والتقدمية ورائكم، الجرس لا يدق نفسه .. أيادي خبيثة مأجورة تحاول العبث وإفساد الدرس، هناك بعض المدرسين ممن لهم أفكار مناهضة ولا يرضخون للواقع، ولا يعلنونها ويتظاهرون بالوطنية ويدرون أن الذي يصنع النظام في هذه المدرسة ويختار ويقرر هو أنا – فسيروا نمضي خارج الزمن، وليبقى هارون الرشيد على صفحة الكتاب بين الجدران حتى العودة، فالزمن ممتد

والأحداث تتشابه في غاياتها، وهو لا يمل الانتظار بين الجواري الملاح أو في محراب الفلاح، أو عند زبيدة ابنة عمه يلومها على الإسراف والتبذير وبث الجواسيس الرخيصين خلفه، وربما يقف أمامها يتذرع بحجة حين تضبطه يستلطف جارية أعجمية، أو يشرب النبيذ ويأكل اللوز والتفاح والبرتقال مع ندمائه، أو قبل أن يلقي خطابه يملأ رأسه، ثم يوزع عطاياه على شعرائه المسترزقين..

تناهت الأصوات والحركة إلى الصفوف الأخرى. وقف المدرسون أمام أبواب الصفوف خوفاً من تأثير الحماس المتصاعد .. لكن التلاميذ تقافزوا إلى الشرفات ينظرون ويتهامسون ويتفاعلون بحركاتهم وهم يودون ألا تفوتهم فرصة المشاركة. وعمت الفوضى في المدرسة لكن المدرسين شكلوا حاجزاً لخروج التلاميذ من الصفوف الأخرى. وهمس أحد المدرسين لزميله:

– هذا هو الطاعون ولكنهم لا يفقهون.

– حتى في ظل بروز الحقائق.

– التصنيف أولاً – والولاء.

– لكن هذا محاولة لتدمير كل شيء عمد بالدم.

سمع المدير الضجيج والهتافات، لا علم لديه بهذه المناسبة، وتشكك في الأيام ولم يعد يدري في أي يوم هو! تحامل واتجه نحو المسيرة المنطلقة التي تجوب ساحة المدرسة. وفي البداية تضاءل أمام الهتافات، ولكنه تأمل الفوضى التي عمت المدرسة .. فاقترب من قائد المسيرة وهمس في أذنه يطلب منه العودة بالتلاميذ إلى صفهم الدراسي، فدفعه بكتفه قائلاً:

– لا تفسد علي متعتي، فيما بعد سندعو لعقد اجتماع نناقش القضية.

– القضية هي أنت!

– ارفع تقريرك.

– إذن تنحَّ عن الطلاب.

بهذه البساطة .. ليس من السهل أن أخسر قاعدتي، وأنا لا أمن لك وأعرف طمعك في المسؤولية والتدريس بغية العلاوة والأجر الإضافي. وهتف مشيرا إلى المدير:

– يسقط الاستعمار.

فتصاعد حماس التلاميذ وهتف أحدهم:

– الوقت للإفطار.

– المسيرة يا شطار.

– وملخص الدرس.

– بعد كلمة المدرس. وأمر التلاميذ باجتياز بوابة المدرسة الخارجية، وقفز أمامهم مواصلاً المسيرة. بدأ التلاميذ يتهامسون ويبدون تراجعاً، فأحس بهم وانتبه إلى مسألة اتخاذ المواقف فرفع السوط فتدافعوا خلفه مجبرين.

الأب مـات، لكـن الأم حامـل الأحذيـة تتقطـع، واليـد قصـيرة، الأحـلام تتـوارد، والتجـارب كثيـرة.. وأغطيـة الـرأس لا تنفع تحت الأقدام والشمس لافحة ومحرقة.. نقعد هنا، سنعود. نواصـل .. يقودنـا دون أن نـدري نسـأله.. لا يفيـد.. نوقفـه.. سيتخلى عنـا فـي الوقـت الحـرج.. والحـل .. نسـير، سـيروا لا مفر.

تلميـذان فـي مـؤخرة المسـيرة يسـيران ولا يعايشـانها وقـد حلا لهما الحديث الكروي والدوري المقبل.

– أهلاوي..؟

– سمعوني وذاك؟

– شعلاوي. وهذا شمساني وأولئك لا أعرفهم.

– وصاحبنا..؟

– ضغط على مرة فاستسلمت.

وتزايد عدد التلاميذ المتهامسين مع انطلاقة المسيرة في الشارع، وحين أخذت في الامتداد الفوضوي، أمرهم بالانتظام في طوابير، وأرشدهم إلى طرق القفز فوق أكوام القمامة، والسباحة في مياه المجاري المكشوفة.

حرارة الشمس شديدة وبطون التلاميذ خاوية وعيونهم زائغة.. همسوا وتمتموا وسبوا وشتموا، وتحول حماسهم إلى قلق، والمسيرة منطلقة والزمن يتراجع.. حتى ظهرت بوادر الاحتكاك بينهم وبرزوا فصائلاً وجماعات وتفجرت كوامن النفس – فتلاطموا وتقاذفوا بالحجارة – وأخذت الدماء تنزف مختلطة بالعرق المتصبب من الجباه الصافية وبدأ الفاصل بين نقطة البداية وخط السير – فقد اختلطت المعاني، وازدوجت التعبيرات – وأخذوا يتجمعون ويفترقون في دائرة صارت تضيق بهم. ومع الإعياء دب الإنهيار في أوصالهم، وحلا لشجرة العبقريات الوارفة المنظر والدماء التي تسيل مع العرق وتختلط بالمجاري وتدفقت في الشارع بغزارة واقتربت المسيرة إلى الغرق.. طلب القوارب والمجاديف دون فائدة

وصاح أحد التلاميذ إلينا بطائرات الإنقاذ! فأسكته زميله بقوله: هي للقصف. تساقط البعض من ذوي الوجوه الشاحبة، فصرخ فيهم الصمود، البقاء للأقوى.. لحظات وسيتم لكم ما أردتم سيعم الرخاء، حان الآن وقت الرقص والغناء، ابتهجوا عيشوا اللحظة، زفرات الموت نغمات الفرحة. احذروا المتساقطون يخادعونكم لا تلتقطونهم، سنبدأ الخطاب، استمعوا وانصتوا..

لم يعد أحد يدري بمكانه وزمانه، تدافعَ الآباء ساخطين والأمهات مولولات حين شاهدوا المجاري تجرف المتساقطين.. ووصلت سيارة الشرطة والإسعاف، تقاربوا وتماسكوا ثم نهضوا واجتمعت الأيادي واشارة الأصابع نحوه وهو يهتف...

مارس ١٩٨٩م

لا أحلم بالنوم في العسل

هكذا تراءت لي الأشياء حين تقلصت الأحشاء، ومن حيث أتيت رأيته يضغط بالأصبع الوسطى على زر الكشاف الكهربائي المثبت فوق أذنه بشرائط من قماش أصفر اللون، فانطلقت أشعة الضوء ساقطة على الأرض مكونة دوائر ضوئية يفصلها عن بعضها شبه ظل..

وانطلق خلفها يركض ومن ورائه انطلقت أركض خلفه وأدعوه للتوقف فلم يصغ إليَّ. حاولت تضييق المسافة بيننا لأسمعه ما عندي ويسمعني ما عنده. أقبله على علاته ويقبلني على نواقصي هذه بتلك – لنتخلص معاً من الشوائب وكسر الحواجز الوهمية المركبة في الفكر المستورد من مطابخ صناع العولمة وموزعيه. حاولتُ جاهداً الاقتراب منه على أن لا يتقدم أحدنا الآخر .. أول ما قلت: أن نبعد الذات عن المواقع حتى إذا فقدنا مواقعنا لا نفقد ذاتنا معها. إنهم يختارون لنا كل شيء ولا يتركوننا نختار أنهم لا يتعاملون

معنا كما نحن عليه، بل كما يريدون هم أن نكون.. ولم يحتاروا فينا لأن في طبيعتنا التمرد على الانقياد للنظم ولو كان على آبائنا. لم يشتروا القانون ولكنهم اشتروا الضمائر والذمم وتسارعوا مبتهجين يقطفون ويتذوقون ويتلذذون التفت نحوي فتغير اتجاه الكشاف والبقعة المضاءة وهو لا يزال يركض وأنا خلفه أركض وقال: كل شيء يمكن استبداله إلا أمك.. فهل استوعبت ظروف عصرك؟ لا تقل ما يسرني ولكن قل ما ينفعني. كفاك .. لا تتبعني فأنت أما أن تقع، وإما أن تستمر في الركض، فلن يصل كلانا بسهولة إذا اخترنا الطريق بإرادتنا الحرة، والاختيار يوجب الالتزام لما نختار. الوصول بالنسبة لنا يعني بداية التضحية، أما بالنسبة لهم فهو زور نهاية العطاء وبداية حقيقية للأخذ. ارتد عنقه فتبعته بقعة الضوء وأفلحت في الاقتراب منه أكثر وقلت بعد أن شحذت حبالي الصوتية: أنت تعيش مرحلة الذهول لما يجري حولك فلا تجعل الإحساس بغباء الذين يتحكمون في شؤونك يلازمك ويصيبك بالإعياء – فكل شخص إمكانياته

وقدراته أقل من مستوى المسؤولية لا يلتفت إليك قال ولم يغير من اتجاهه أنا أمتلك من القوة والطاقة الشيء الكثير ولكني أعيش الحيرة ذاتها .. جائع متعطش. ثديا أمي يضمران، وعرق جبين أبي يهطل، والابتسامة غدت حين غدوت محبوسة بين شفاههما.. وكانا خير أبوين لأشقى طفل دفعه رحم امرأة إلى الحياة – والحمد الله – فإذا كان أبواي لهما ابن فمتى سيكون لي ... وإن لم يتهيأ لي فإننا نقف في سنة الحياة ونعمل على نبش حفر في الطريق. كم نحن بحاجة لتهذيب السلوك لكف الأذى عن أنفسنا، وفتح أكرّة أبواب صدورنا للنقاء ومزلاج العقل للصقل، نستقبل ونرسل ما يناسب ويؤصل ولا يغسل. لا أحلم بالنوم في العسل ورجلي في الوحل في مجتمع الطاعة أبحث عن العمل مهما كان مضنياً، المهم شريفا وأقدر عليه. وأنشد العلم والمعرفة والترويح والمشاركة الحياتية السليمة.. هذا إذا كانوا يعتقدون أو يرون أنني كائن اجتماعي أبحث عن صالح الأعمال، آخذ وأعطى، وأضحي متوكلاً على الله. ربما لا يكون لي نصيب،

وربما لم أهتد إلى من يعين كلما سعيت فاتتني الفرصة كما يقولون، ويقال لي أحياناً بين المقهى والمسجد: أنت مكسور الجناح فكيف ستعلو!؟ .. لا أجنح لركوب الطائرة، ولكني أطمح أن أمشي فوق أرض صلبة، ولا أطمع في أكثر من حاجتي. لدي مخزون من ثقافة احترم بها الآخرين، لدينا الكثير مما نتفق عليه ونلتقي فيه، والقليل من الاختلاف الذي لا يؤدي إلى الفراق، والفراق فيه عذاب، ولكننا نظل نأبى..

سألته وناشدته أن يقف فإنني قد تعبت وخشيت من الاتباع إلى نهاية لا أدري عن مؤشرات نتائجها ... فقد طال بنا الركض وخفت الانكفاء. قال: حاولت الاقتراب مني وها أنت قد بدأت تمل بحساب المكاسب من غير الخسائر وبالسعر من غير قيمة .. بل وتفرض عليَّ الوقوف. ألا ترى أنك تملى علي! ألم تركض باختيارك؟ فواصل إن شئت فالطريق طويل وشاق كما يبدو .. لا تعجبني الطفرات السريعة، خطوة خطوة نصل، ولبنة لبنة يستقيم البناء. أنت لا تدري كم احترت، وكم من الوقت مضى قبل أن أركض

الحاجة والوسيلة حيرة بين التسول أو استخدام العقل الجبار للقيام بعمل الفجار، ألفيت أن المقابل هو التنازل عن القيم والأخلاق لأجد أكثر مما احتاج وبسرعة، ولكني لا أريد أكثر من حاجتي ربما الحاجة نسبية وتتفاوت من شخص لآخر ولكن بما يعني الاعتدال.. أم أني أحمل على الجنون حتى أتجرع كأس المنون وهذا الأمر ببساطة بيد الله سبحانه وتعالى. الدافعية قوية ولكن الضبط أقوى فأبقى مكبلاً بخشية الله. كم تعذبت وأوذيت فأسأل نفسي لم كل هذا الصبر والاحتمال؟ ويأتيني الجواب من داخلي ومن حولي – إن الأسود رجال ذوو عزم وقيودهم مخافة الله..

رفعت رأسي فامتد بصري يلتهم نجوم السماء، ودار فكري.. كتل كيف أتصور حجمها: ملك بلا حدود وعقلي مهما بلغ محدود – في هذه اللحظة أحسست بتجدد الطاقة ونسيان التعب، أركض وأتعلم وأتهذب.. ما معنى في أن (لا يملأ عين الإنسان إلا التراب). أبدأ بنفسي وأنكر ذاتي وأستظل مع أمتي تحت مظلة ولي الأمر، وأيقنت أن ما أكلته بالأمس لا أجتره اليوم، وما كسبته اليوم قد يطير غدا.. وقد

لا يدوم الفرح ساعة، وفي لحظات قد يتقلب الإنسان من حال لحال، وأن كل نعيم زائل إلا نعيم الجنة. هكذا يصير الحاضر زرع الماضي، والمستقبل جني الحاضر .. ويصبح القهر أسوأ أنواع الظلم.

شدني صوته وهو يقول: ألا زلت تتبعني .. الطريق صعب وطويل ننتهي ولا ينتهي، لا أقصد أن أخذلك؛ لكن من سيواصله ويغرس شجرة بدلا عن قلعها، ومن سيصلح ولا يفسد، ويجبر ولا يجرح دمعتان ترقرقتا بين الجفون سالتا من محاجر عيني، وابتسامة شدت وجنتي ولم تفرق بين شفتي.. قلت وقد بدأ الاطمئنان يظهر في نفسي: أن نركض معاً وفي اتجاه واحد خير لنا من أن يركض كل منا في اتجاه معاكس أو خلف الآخر وأنا أستشعر وضوح الهدف وقرب المنال وحسن المال فالتفاؤل يغمرني ..! قال: لا تعطي لخيالك العنان، أمزجه بمزيد من الواقع – فأنا أنشد سد الحاجة لا بلوغ السعادة – قلت: هل لنا في ماء نروي عطشنا . فقال متسائلاً ومختبراً حدسي: أنت قلت: (لنا)! فهي خير إن كانت

للمشاركة الفعلية، فكيف أيقنت أنني أريد ماء؟ فقلت من غير تمهل لأنني رأيت ما قد لم يراه من واقع الحال والإحساس، هلم بنا فتلك بئر كما يبدو فرد على مشاعر نبيله ووردناها، فأدلى خفه ورفعها، ثم أشاح بوجهه نظرت في عينيه ثم أدنيت رأسي فشممت رائحة – نفط – فقلت في ضجر: لا سبيل لنا الآن إلى الماء. نظر إليَّ متفحصاً وقال: هذا يعلمك الصبر، وما دمنا معاً فلا خوف فهيا نواصل الركض.. وانطلقنا نركض لم آكل يوماً حتى الشبع، ليس اعتراضاً مني على حديث قدوتنا رسول الله محمد بن عبدالله صلى الله عليه وسلم لأصل إلى حد التخمة، ولكني أتمنى أن أحس بلذة الاكتفاء والارتواء. وأن تجمعنا في المساجد نقاط الالتقاء، ولا تبعدنا جوانب الخلاف .. التقارب والالتقاء مسؤولية من!؟ حتى يصفو ذهني وأصلي صلاة ترشدني لأن أصل أرحامي ولو بزيارة وكلمة طيبة، وأن أتسامح ولا أضمر، صلاة تقودني إلى إماطة الأذى عن الطريق لا بوضع الشوك فيها، صلاة تصيغني في قول الرسول: (مازال جبريل يوصيني بالجار

حتى ظننتُ أنه سيورِّثه)، ولم يقل بأصحاب المطار والآبار والبحار .. أنت الآن مني فلا تَمل لثرثرتي واصطبر فأنت تحاورني ولم تمر على ما اعتقد بتجربة متكاملة إلا ركان من الحرمان، والنكران من الأهل والجيران. سجيَّتي لا أعرف التزلف ولا أقبل أساليب التملق والوصولية، ولا أتقن التمجيد في الوجه ثم الطعن في الظهر ففيها من التدمير ما يقف في طريق التعمير. لا تتوقف فما دمنا معا سنصل وإن طال السفر.

عمَّت الظلمة الطريق فجأة، فتوقّعت أن بطارية الكشاف قد نفد مخزونها من الطاقة الكهربائية ولم نحتاط لمثل هذا.. فهل نواصل الركض في الظلام، أم نقف حتى يبزغ الفجر .. أكلتُ (سندويتشا) فتغيّرت رؤية الأشياء فصليتُ ركعتين شكرا لله.

نوفمبر ٢٠٠٠م

لحم الضأن

في السوق جلس فوق مصطبة أحد الدكاكين المغلقة، لف سيجارة وأشعلها، ومع حلقات دخانها علا بصره وتصاعدت حساباته، وتأوّه.. – ألف ريال في الجيب – أنتابه السعال فامتد عنقه وانحنى واهتز رأسه. السيجارة لم تفلت من بين أصبعيه .. بصق لعاباً ممزوجاً بدم، وتأمل الخليط.. البطن خاوية، ولا يوجد إحساس بالجوع، لا داعي للقلق فقد حدث هذا مراراً. هدأ السعال، نؤجل الدواء. شخص ببصره في الواقف بجانب أحد أركان البيوت.. قف هناك كما تشاء بس لا تختلس إلي النظر!.

أنت تراقبني لأنك لا تريدني أن أراك، كلانا يطرق باب الهوان .. لا تتحاشى، لم أتيت وأنت لا تريد أحد أن يراك!؟ لِمَ تستأجر صبياً يخدمك ويحضر طلباتك دون أن تكلف نفسك العناء أو تتعرض للإحراج؟ لن أطلب مساعدتك

لي، هات النقود وسأشتري لك مقابل كم عود مورق. لن أبرح إلا ببغيتي هات أو ابتعد .. أنا أمقتك، الوقت يمضي أنا لا أمضي، أنت الذي يجب عليه أن يمضي.. ولكن بأية لغة؟! ستعود بعد ذهابي، أنا لا أذهب خالياً مهما بلغ الأمر. أنا أعرفك سلواك في أن تنم عليَّ عند أصحابك، وهم ينقلون عنك ما ترويه لهم محملا بأقوالك الشمطاء.

لا مفر. هكذا صمودي زحزحك وجعلك تغادر الموقع متقهقراً .. لا مستقر ودوائر الدخان ترتفع ولا تعلو فتتلاشى كما يتلاشى قمر شعبان في دورته.. أيام ويهل شهر رمضان.. أمي وزوجتي تريدان قميصين للصلاة، الأولاد يطلبون الكراملا والجيلي) وأنا أشتهي الشربة وفيها لحم الضأن الدار من غير حطب، عيدان القات وقودها .. نسأل أصحاب الشأن. ولم لا .. الإفطار في المسجد والصلاة جماعة. ما هذا الأمر!؟ لماذا لا توزع الابتسامات الوقورة في شهر الإجلال؟ عيون تبصبص، وامرأة بحاجة لمعرفة الأسباب التي دفعتها للجلوس أمام باب المسجد بدلاً عن

عشرة ريالات ترمى في حجرها من بعض الخارجين حتى لا تستهويها الفكرة.. يا أخي أنت بخيل أَم تستحي من إعطاء القليل؟ ولكنك تعلم أن الحرمان أقل منه. أمرك مدهش! هنا من غير سابق معرفة .. ضحكات وتوسلات وشحاذة وإذلال، قبول وانكسار للكرامة لا نحسها إلا مع توارد الهموم بعد مضغ آخر غصن.

الامتناع يرافق هلال رمضان حتى ليلة العيد نبدأ الإفراج اليوم راحة الليلة حاسمة تتوارد فيها الأفكار والاقتراحات والإلهام، وغدا عطلة ونوما عميقا ورخصة من صلاة الصبح حتى لا يتبخر المزاح ويحل الصداع. والحل؟ لا تردد .. أنت دائما مقبل غير مدبر، لا تتراجع في الأسبوع الأخير .. بلى، لن أتخلف عن الركب.. هيا ندلف مع المحتشدين.. أنفق ما في الجيب يأتيك ما في الغيب، أنت لست أقل منهم، لابد وأن تظهر في مستواهم تحافظ على مكانتك في أوساطهم. قرائح تتفتق تنشر عبيرها بسخاء، منابر

تجلجل بالأصوات تبني صروحاً شامخات وترسي جبالا واقيات حول جنات وارفات.

وقعت السيجارة من يده قبل أن تلتهمها النار، انحنى عليها غلام يلتقطها وفي عينيه انكسار، رمقه بنظرة فاحصة وابتسم .. لف سيجارة أخرى ومضى وهو لا يعرف سوى أن يسأل: طري أم بارحي – وامتدت يده بثمانمائة طوتها يدا بائع القات. ابتعد مزهوا بعد أن تأبط لفافة القات وهو يردد: بقي ما في الغيب يأت أو لا يأتي كثيراً أو قليلا فتقديره عند عالم الغيب.

عكس السيجارة المتناهية حين اشتعلت العبقرية تحضر موضوع الجلسة ودستها في فمه لسعته نيرانها.. نط ورمى بها ووقعت اللفافة على الأرض، وحين استقر ليعاود المشي بشفاه محروقة قد لا تعينه في النظر لوجه زوجته ساعة يأويان للفراش لامست كفه أبطه متحسساً فانطبقت راحة يده اليمني فوق قلبه حين افتقدها.. نبض متسارع، وجزع يتصاعد. وغيرة ثم ذهول وهو ينظر حواليه في نعجة الفاها

قد هشت إليها تقرض فيها وتنازعها عليها ابنتها لتحظى بنصيب من الغنيمة. أحس بالخور يدب في أوصاله وأشار بيده جهة النعجة الأم: آه.. لو كنت من الضأن لأخذتك لشربة رمضان. لا بأس.. هاتان مئتا ريال اشتريا علبتي دخان. ومضى يعرض ساعة يده للبيع..

بضع خطوات خطاها وتوقف ولم تتوقف حركة عقارب ساعته، بان السرور على وجهه وفتح فاه جذلان... من أين قدم ذلك الضياء – الله أكبر – أنا لست سيئاً.. التهاون والإفراط هما السيئان .. يا لها من وقفة تجلى في نورها الفكر. وانطلق نحو ذلك الضياء وقلبه يهفو إليه وقد قرر أن يمحو ذلك الغباء..

يناير ٢٠٠١م

حق العشاء

منتصف فصل الشتاء، الطقس حار، المحلات بدأت تغلق أقفالها دخلت محلاً لا يزال مفتوحاً .. سلمت على أصحابه؛ الساعة المعلقة على الحائط تشير إلى السابعة مساء. قبل أن أجلس اندفع طفل إلى داخل المحل، تأملته.. في الثامنة من عمره تقريباً، بنيته قوية، لكنه أغبر الوجه رث الثياب، في نظرته ملامح رجل متمرس على الحياة وفي حركته خفة الأطفال وبراءتهم توقف حينها وقال: شيء ماء؟ أشار صاحب المحل بيده نحو مطارة الماء. ألقى عليها نظرة ثم دس سبّابة يده اليمنى في شدقه الأيسر وثناها مقتلعاً بها نشقة كبيرة، أخرجها في باطن أصبعه الذي ضغط عليه بالإبهام ثم دفعه بقوة باتجاه الباب فانطلقت النشقة وتناثرت شظاياها أمام المحل.. ومن ذراتها المتطايرة ما أصاب عينيَّ وجعلني أحكها وأمسح عليها بمنديل أخرجته من جيبي وأنا أرمقه متجها صوب المطَّاره، وملأ الكأس ورفعه ليسكبه في

بطنه.. لحظتها سألته أين تسكن؟ وقبل أن يفك فاه توقف الكأس ملامسا شفته السفلى وينظر إلى نظرة ازدراء؛ وأنزل يده ببطء ثم عطفها لينسكب الماء في وعاء بجانب المطارة. أفرغ ما في الكأس، وبعد أن أعاده إلى موضعه خاطبني بجلافة: هات حق العشاء. قلت له عندما تقدمت لأغسل عيني: العشاء في البيت بين أمك وأبيك أمتع بصق على أرضية المحل، فتحسست خدي بيدي، ثم ابتسم ابتسامة ساخرة وانطلق يعدو شاتماً..

عشرون ريالاً امتدت بها يدي.. وخرجت أناديه... خطوات ولم أعد أراه التفت نحو المحل فرأيته مغلقاً... وإلى مسمعي تناهت همهمات عمال النظافة وهم يفرشون القمامة في الشوارع، حاولت أن أعترض فمنعني عن الاعتراض انهماكهم في العمل وانشغالهم عنِّي.

انطفأ نور عمود الكهرباء الذي أسندت إليه ظهري. قلبت دمعة العين فلعقتها بلساني ثم بصقتها. نظرت إلى ساعة يدي المضيئة.. سبع دقائق بعد السابعة تشير

عقاربها.. أغمضت عيني وأخذت نفساً عميقاً ثم فتحتهما ونور القمر يضيء كل شيء حولي..

فبراير ٢٠٠١م

المهاجر

بعد أن صلى الفجر في جماعة لف رداءه حول كتفيه وقام يصافح من هم حواليه .. يد تشد على يده ولا تتركها، فخرجا من المسجد وتوقفا .. شفاه مطبقة، وبصر شاخص الرحال قد شدّت – انفرجت الشفاه، راده في الكلام.. فلم يفلح في ثنيه عن عزمه احتضنه وتبادلا أقوالاً مهموسة.. تراخت الأيدي وتباعد الجسمان المواجهة لم تحسم بعد.. بنات العين يترقرقن ويلمعن بين أحضان الجفون، لكن العينين الواسعتين النفاذتين يخترق بريقهما خيوط الفجر وقد نسجت ثوبه الفضي مستهام، لكنه لم يُدهن بل قال: لا تقابلني بهذه النظرات حتى لا تتصاعد العبرات.. الأمر لا يثير الدهشة حيث الكل يبوح بصدق عند الشدائد. الرجال تتألم ولا تظهر البكاء حتى لا يشق على ذويهم. هجرة مشروعة للفرد والقبيلة عسى أن تكون مؤقتة، ولا تصدق من يقول مغامرة.. لكنه التوكل .. لا شجن، إلى اللقاء..

استدار، ثم ركب راحلته، ورفع يده مودعاً.. خطت الراحلة فخطا خلفه بضع خطوات ووقف مناديا بصوت جهوري.. فتوقفت الراحلة دون أن يلتفت إلى الوراء: خذ عني، أول ما تضع قدميك في الموطن الجديد فاتجه صوب المسجد فإن ألفيته نظيفاً فحط الرحال، أما إذا كان غير ذلك فأرتحل.. وإن بانت لك رغبة فاختر التربة الصالحة، لا ملل.

ابتسامة أفرجت عن أسنان بيضاء روت خدوداً موردة، اختلس من رونقها نظرة في حياء، ولم يجرؤ على رفع عينيه مرة أخرى، لكنها كانت بلسماً للآهات.. فشكر الله على جمال الجسد والروح.

هز كتفيه، ومسح على ذؤابة الراحلة الذروع، ثم وكزها فانطلقت تعدو وتثير نقعاً يتصاعد من خلفها مختلطاً بإشراقة شمس الصباح، مكوناً ستاراً ذهبياً يدلُّ عليها ولكنه يحجبها عن الأنظار.

بارقة أمل تلوح في الأفق أمام عينيه جعلته يغمضهما ويأخذ نفساً عميقاً، ثم يفتحهما وهو يزفر ببعض ما في جوفه من حرقة وحسرة.

مارس ٢٠٠١م

المحتاج

بيده المرتجفة رفع فنجان الشاي الخوف والرعب شيئان، والدهشة والإرتباك من غير ارتباط يختلفان عنهما، وقطرات من الشاي قد أوقعتها الحركة الاهتزازية على قميصه وهو يحاول إخفاء ارتباكه النابع من هواجسه قرّب الفنجان من فمه، ولما قبّلت شفتاه حافة الفنجان، وقبل أن يرشف الرشفة الأولى سرى خدر في جسده فاسترخي حين استنشق عبيراً آت إليه وحده، وحملق في سقف الحجرة وهو يعيد الفنجان إلى الصينية .. ولما أحس بوقعه عليها تضاءل اتساع عينيه وغمغم ترى هل صنعته يداها..؟

واستعادت الذاكرة نشاطها تدوّر شريط الذكريات وهي تعزف على أوتار القلب أنغاماً، فتنساب من الشعيرات أشجاناً.. طفل لا يتعلم، وحرب لا ترحم، ووفاء يتعاظم،

وإحباط يترنم، وحب يزخم، وابتزاز به مسلم، والسيوف المسلولة لا تحكم طالما ... وأكثرهم للحق كارهون).

وهدر الموج وأزبد، ولغة العيون تعبر عن المكنون حين ينضح القلب الحنون المفتون بجنون، ترسم تقاسيم الوجه، وحركة الجسد ملامح العرض والطلب، والرضى والغضب والحقيقة تتآكل أطرافها بين الواقع والوهم والطموح والغرور .. والأمل في أن يكون الرجل للبيت حماية، والمرأة رفاء. ويبوح الخاطر..

عشرون عاماً مضت، فرشت وطوت، ثم حصدت ما زرع من لوعة. كم من نضارة أخذت وعافية سلبت وأحباب فُرِّقت، وابتسامة انتشرت ثم اختفت، وشعيرات بيضاء قد برزت – مرحلة انتقالية – ولم يعد بالإمكان العودة إلى ما كان وكل شيء صار يتغير، وإن خلفت الذكرى التي تتلاشى بتكرار العدوان، فلا بأس أن يستعيد أعواماً بما تحمله فصولها من الغليان حين بدأ..

ذاكرة التاريخ أن بقت على صفائها تقول حقيقة ما كان عليه إن لم يغازلها التحريف.. فالأطراف ترفو والقلوب تهفو في عفة ولا تهفو، والأيدي ترتعش وهي تمتد ولا تتشابك. الخطوات وئيدة والأمواج تتلاطم فوق الجزيرة، والقارب الهادر متوثب ليمخر العباب، يشقها ويغوص بينها ولا يلبث إلا وهامته القاذفة تبرز في كبرياء فوق شواطئها ملساء الصخور. أما زهرة الربيع وإن غزتها السنوات فهي محتفظة بجمالها محاطة بأشواكها المكتسبة من دينها تحميها حتى الساعة من زهو النفس وعبث اللئام.

شريط من المشاهد صورها الإحساس لم تتم بين المرض تارة والصحة تارة أخرى. الاتجاهات متعددة والخطورات متقلبة، ولكل بوصلته تهديه الطريق وتضله. رغبة من غير طاعة، وانطباع من غير ضياع. لا ضرر إذا بقت العورات لا تصلح للنشر، والرب يغفر....

أكبر مشكلاته أن الإمكانيات لا تساعده، وظروف الحياة لم تعد مواتية، والحب وحده لا يكفي حتى صارت

رغبتهما الجامحة جانحة .. ولكنه لم يحتار حين فكر وقدر وأبى أن يبني قصور سعادته فوق كهوف تعاستها، ففي الوقت الذي بني فيه أسرة لم يكن البوح بما في النفس بينهما، وكلاهما صار يتساءل عن فائدة اجترار الذكريات وهل فعلاً أمست كذلك، أم لازال في النفس هوى؟ كلاهما أخطأ من غير أن يقترف .. ربما هما الآن من العاشقين الذين نأت بهم الأقدار، وكرت وفرت بهم متقلبات الحياة بين سد الرمق والتخمة. ويتآلف الفقر والاستحواذ، ويتأخى الحلم والجبروت في بلادة الإحساس ويظهر الامتهان بلا امتحان..!

جرعات ضئيلة من الزرنيخ ولكنها متواصلة يولد تفاعلها الانتقام والحطام والخطام، ويرون بقلوبهم بعداً أطول مما تراه عيونهم، ويمسي القلب متلفتا، وتنبعث من الجوف روائح منحنيات الذكريات.. ويبتعد، ولكنه لم يكن بانقطاع المهاجر أو المغترب لتحل السلوى إلى حين العودة فيتصاعد الشوق بركانا ويزداد لهيبه حين تتأجج نيران. لا رماد...

الحاجة والتقتير، والابتذال والتبذير البحر والغابة ومسح الحرف والعرش.. قلق لا يتبدد، وأشياء تتقزم وأشياء تتضخم، وشارع يتجهم.

في كل أسبوع يراها تخطر أو تراه ماراً لكنه لا يقترب فقد يضطرب أو تزل اللسان بما يجرح الفتان وهو عازف عن مثل هذا.. وتبقى تعيش على الرجاء، وتأمل أن يرفع عن كاهلها العناء، وتراها تشدو ورمزها يقسو، لكن حين كان يغمض عين وينظر بعين – وهذه عادته العفوية – تزداد قوة السمع في أذنيه ويتراءى خرير الماء يتناغم مع حفيف الأشجار وشقشقة العصافير في مقطوعة موسيقية رائعة ضبطتها أصابع يديها وهي تداعب بهن أوتار صفحة الماء وتناغيها بهمهمة، فتنساب متناغمة من غير نشاز وتصل إلى آذان صاغية، ووجه متهلل وابتسامة مشرقة .. وتبان شفتان كهلالين التقيا تنثران درا من رضاب يزينهما بريقه، ونجوم مصفوفة متناسقة تتلألأ في سماء الثغر المشهد. دندنة امرأتين، ونهيق حمارين وعواء كلبين، وثمرتان تسقطان على

الأرض، وآذان يُرفع ويتردد صداه فيشد الأسماع ويسيطر عليها حتى لم يعد يُسمع شيء سواه.. وتقف، وتعتدل قامتها، ويرتفع بصرها على هديل حمامتين حطتا فوق ركن البيت. حطت والنسيم يلهو بخمارها، والخطوات يداعبن تفاحتي شجرتها حين يعلو صدرها ويهبط، وتراءت رقبتها أكثر طولاً. وبصرها يعانق قمراً طالعاً من خلف الجبل، وسحابة آتية تراوده وتناغيه فتحتضن نصفه، فيرفس في حجرها ويشق ثوبها المزرق ويبرز من تحتها كما كان بارزاً من فوقها، ومع ذلك لازال شريط يقطع في القمر ويحجب جزءاً من ضوئه، ويصير السحاب والدوران مشتركين في آن واحد لتعم الظلمة بقاعاً من الأرض. السحاب يتمتع بنفوذ لبعض الوقت يبرقع وجه القمر ويعبث بالمشاعر ولا ينتحب وينسحب وهو يرى الدمع من عيني الإنسان ينسكب ولا يستتب والأرض من تحته تنتكب، ومرض الحاشية ينتشر يمنع العافية.. ومع ذلك فالحياء يمنع إطالة النظر .. لا عتاب.

استدارت، وفي دلال واصلت سيرها من غير أن تضطرب.. ورفلت في ثوبها الأزرق وهو يتماوج كالموج الهادئ بعد عاصفة وضعت لها حداً الحواجز الآتية من الداخل وهي تخطو في ثبات متمتعة بالخطرات أمامه.

مشاعر مرسلة، وأحاسيس عاتية تتلقاها نبضات فؤادها فيترجمها عقل راجح، وتقبض على ثوبها من فخذها وتكرر لفه بقبضة يدها كمن يغلق بابا ويفتحه، وخيل إليه أن يدها تلامس مبتدأ شعبتها وتضرب عليها بكفها تحسسها وتوقظها من سباتها، فتشد بذلك على خبرها، فيبدو منصوبا فلا يمسح ذيل ثوبها الأرض ويبقى الثوب كله نظيفاً.

خشى أن يكون ظالماً لها والجبال تقذف حمماً من الطغيان، وتسيل بالإحباط الوديان، وقد تاهت الرعيان. لم لا .. فما أكثر اللاتي يصرن عرضة للأهواء والظنون، وما أبعد اللاتي يتعلقن بالآمال ويتحطمن فوق صخور الأحلام أيعشن ويحلمن بزيجة أكبر من إمكانياتهن ومستواهن الاجتماعي ربما شئن القفز فوق بيئتهن.. احتمال والإغراء والانبهار

احتمال آخر، وقد يسلبهن الزهو أعز ما يملكن اختيار.. ولكنه بالإرادة الحرة، لا ندم.

ويشع القلب نوراً، ويبعث العقل ضياء فترى كل الطرقات. تحافظ على نظافة ظاهرها كما تحافظ على طهارة باطنها، وصار الوعي والتقدير والبحث عن مرفأ أحاسيس ودراية لا يغلبها الوصف تجعل الكلمات والنظرات غير قادرة عن التعبير بما تجيش به النفس الولهانة والمشاعر الفياضة والجسد الفوار أمام الفارس المغوار.. لا تجريح.

تربية قويمة هذبت وجدانية النفس.. وزادت من سعادتها بوالديها لما أمتشق قوامها، فذاقت القلوب حلاوة الحب، كما تجرعت مرارة البعد الحناجر .. وتنظر بين قدميها – وبينهما ثرى – ومن مكانه يتأوه ويتحرق متوقعاً أنها تستمع لآهاته، وأن ذبذبة الحرمان تسري في جسدها فتلهب لوعة الشوق أوداجه. ويتقدم خطوة، ويتراجع خطوات.. لا احتيال.

هذا اليوم، وبعد عشرين عاماً بدأ الكون مميزاً، لكن هذه الساعة كانت أكثر نشاطاً للعقل. وكانت مناسبة وأراد أن يهنئ وعلى مقربة من الدار وجد ضالته فهناه، ولكنه فوجئ به يدعوه للدخول. وسقط الأمر في يده، ورفع المحظور، فارتبك وتلعثم متهرباً عن الدخول كما تهرب قبلها، ولم يجد مناصاً أمام إلحاح الآخر .. وعلى جانب رآها واقفة وهو يدلف إلى بيتها شامخة كشجرة النخيل. لم يحدث أن وقفا طويلا ينظر كل منهما في وجه الآخر باشتهاء، ولم يضع يده فوق ظهرها أو تحته، وما مدها ليقطف وردة من بستانها، ولا حطت النحلة فوق شجرتها لتمتص رحيق زهرتها. وأصبح الهناء لمن يسعد بقلبها الذي هو أودع من جسدها، وأنعم من شعرها، وأدق من صوتها .. وصار كل ما فيها ينيره عقل متقد، وحواس راشدة – وقد أحنى الجيب والعيب رأسه – وأراد أن يتكئ، وكان بجانبه مخدتان، أزاح واحدة واتكأ على الأخرى وهو يردد واحدة تكفي على قدر المتاح، والحقائق والأماني والواقع والحاجة أشياء متناقضة، والمآدب والوعود

والشك وطعنات الخناجر متلاحقة، واستفزاز الخباز، وقبح الرياء و....

نبهه محدثه إلى أن الشاي قد برد. انكمش، فانقطع شريط الذكريات، واعتدل في جلسته، ولما رفع الفنجان ثانية هوت ذبابة على مطار سطح الشاي.. ابتسم في أسى وغمسها بوسطى يده الأخرى ثم أزاحها، لكنه أعاد الفنجان من غير أن يرشف منه.

فرك يديه ثم طوى أشواقه ولوعته وهو يلف العمامة حول رأسه مودعاً لما جال في الخاطر .. وخطا تاركاً الطفل الذي يحتاج إلى من يمسح عن خديه الدمع يكبر، وزهرة تسجد فلا ماء ولا ندى، وسيارة تقتلع شجرة ترتطم به وينتهي قضاء وقدرا، وحطّاب يهوي بفأسه.. وينبوع يتفجر من الأرض وفراشة تنتقل من زهرة إلى زهرة تبث الحياة ...

أبريل ٢٠٠١م

الدرس الأول

صاح الديك، بزغ الفجر، ضحك الطفل، ضُرِبَ الطار، اهتز العرش، طار التاج.. ارتعد الملك وصاح مناديا الحاجب.. حضر السيَّاف: اقطع رقبة ذلك الطفل حتى يمزج الضحك مع الرقص. جز السياف رقبة الملك – بكي الطفل ورقص – هرعت الأم تحتضنه وتقدم له ثديها.. مصمص الحلمة، ونط منزلقاً من بين يديها وتقياً دماً.

جلس الحاجب القرفصاء يندب ملكاً تهاوت أركانه فرط فيه الرجال، وانشغلت الأم تطهر فم وليدها، وتضمد جرحها غير آبهة لملك انهار، وتخشب الأعناق الطوال حين طال عليها الأمد تبحث عن معبود تنحني له ثم تأكله إذا جاعت، وأسرعت الغواني يُقبلن على فارس وكأس، وخرج السمك من البحر يبحث عن صياد، والفأر غادر جحره يتطلع إلى قطة لاهية تأكل أولادها، فمشى يتبختر..

لعب الطفل، وأقبل المعلم بظهره المقوس وهو يسعل فوجد الخبز قد احترق – أنا الوطن والوطن أنا – وأمام باب المدرسة المقفل وقف بجانب التلميذ الذي يغلق سيارته وتطلع كلاهما إلى الآخر، مد إليه يده في انكسار، فدس فيها التلميذ شيئا قبض عليه وهو يبتسم، وبسط يده ليظهر امتنانه على قدر ما يرى – علبة كبريت – تأوه وعاد أدراجه وهو يفرك أصابعه المحترقة..

اختلس منه التلميذ نظرة أسى، وجرى تاركاً السيارة رامياً مفتاحها خلف مُعلِّمهِ. وقعت الحقيبة في الشارع المسفلت فتوقف على الرصيف، ولما هم بالعودة لالتقاط حقيبته.. أذهلته سرعة السيارات الفارهة التي أدهشها، ولذّها، وأقلقها الحدث متسابقة – لتقديم التهاني ثم التعازي أناقة في المظهر من غير مضمون. وقف يشاهدها وهي تدوس حقيبته أمام عينيه .. وهبت الريح ترفع شظاياها في الفضاء، وفي الجيب وقع قلم لم ينكسر ... وعلى طلقات المدافع، وبطولة المذياع والصحيفة، وعويل النائحات المأجورات، وهمس المشيعين بين

أسيف ومتشفي وحالم سار الموكب الجنائزي تجاهروا عاش الملك. تخافتوا: كش ملك.

تراءت أمام عيني الحاجب يد الملك تخترق الكفن وتظهر خارج الجنازة ملوحاً بها، ثم مشيراً إليه:

– ما الأمر!؟

– هؤلاء كانوا يتآمرون على الملك، صفينا البعض، وألقينا البعض في الشوارع والحواري والمقاهي، وبالسجن البعض الآخر. اطمئن لم ننف أحمد ولم ينفد أحد إلى الخارج.

– هؤلاء مخلصون لعملهم ولوطنهم، أنتم الذين حولتموهم إلى متآمرين وكنتم تتأمرون عليهم تحت مظلة حماية الملك.

– نحن نحافظ على الاستقرار وراحة الملك.

– لكنكم لم ترجعوا الأمر إلي.!

– الوضع لا يحتمل مشورتك، مرحلة وانتهتْ.

– تربصتم واغتبتم حتى صفيتم الملك.. لمن هيأتم الأمر أيها المهندسون المفلسون!؟ من هو الآخر ضللتموه فانخدع فيكم..؟ ما أن يحاول إصلاح الاعوجاج حتى تؤلفون عليه قوى معادية حوله ليتراجع ويستسلم لكم... وتعودون أنتم تمارسون هيستيريا السلطة والاستحواذ والشهرة.. أما إن كان اختياركم موفق منذ البداية فنعم ما اخترتم – دمية – لكن لا تنسوا .... إنما هو إله واحد).

– فاتك العمل بها وأنت على العرش، واتاك القول بها وأنت على النعش كبر الطفل .. صفعه على الخد الأيسر من الغوغائية، صفعة على الخد الأيمن من الانهزامية المتخاذلة.

للأسف كلما زاد حب الناس للملك زاد حقدكم عليه... والملك لا يرى التاج فوق رأسه، لكن الناس تراه، وعلى الملك أن ينظر تحت قدميه .. أَتيتمْ بالملك ليذهب، وتبقون..!

– اطمئن في مثواك الأخير، وستظل محفورا في قلوبنا، وسنهتم بأحياء ذكراك ولن يتبدل شيء سوى إنزال صورتك.

– ظهري لا يقوى على حمل أوزاركم، ولكنكم ستدفعون ثمن ما فعلتموه بغيركم رجائي وقد صرت وعهدي ومقتنياتي أثراً ألا تعبثوا بشيء.

شب الطفل، وفقست الدجاجة بيضها، وتداولت الأيام.. وتوهج ألغار وسقطت الهالة واحترق إكليل الغار، يا للعار من نبش الفأر. وقعت الدار .. (وعنت الوجوه..).

وتحت الشجرة علا صوت المعلم بين التلاميذ وارتفع: نعم، (وَعَنت الوجوه...) فهذا عنوان درسنا الأول...

سبتمبر ٢٠٠١م

في بيتنا فأر

في الحجرة أمسك الطفل حقيبته المدرسية ليجلس ويرتب دفاتره، وقت كانت الأم في المطبخ تعد وجبة الفطور لابنها، حتى لا يتعرض لأية آلام، ويمر اليوم الدراسي وهو معافى؛ تزامنت حركتهما وتلاوة عاطرة للقرآن الكريم تنبعث من جهاز التسجيل الموضوع على طاولة في الصالة، فقد اعتادت ربة البيت تشغيله بعد أن تؤدي صلاة الفجر وتقرأ ما تيسر لها من القرآن الكريم. أفلتت الحقيبة ووقعت على رجليه حين سمع ضجة وضوضاء آتية من المطبخ، أَنَّ الطفلُ، ونادى أمه مذعوراً ... وردت تبدد خوفه وتطمئنه، فما حصل هو بسبب البحث عن فأر شاهدته يعبث بالعجين فأمترت في سلامته فأجبرها على رميه في الزبالة.. فار التنور، فتساقطت حبات العرق من جبينها .. جففت وجهها ولم تدرك قطرات على عنقها تجمعت وأحست بدبيب سيلانها في أخدودين امتصها سروال...

الخبيث من وجهة نظرها؛ أما إحساسه فإنه جائع.. كان مختبئا يراقب حركتها من خلف الصحف التي تستعمل منها كل يوم ورقة تلف بها فطور زوجها، فيمسك اللفافة بيد ويرفع الفأرة باليد الأخرى ويحرج إلى عمله، وحين رآها تغادر المطبخ لتحضر ماء ترطب به العجين ولسانها يترطب بذكر ذي القوة المتين.. سال اللعاب في سبيل العبث... وترقَّب حتى هدأت الحركة، وانقض على العجين، فكان ممعنا في الخساسة. فار الدم في سبيل إنقاذ العجين وكان الفأر فارّاً.....

لم يقتنع بالرد عن بعد .. فربما هونت الأمر، ولعل أشياء أخرى وقعت.. وحصل أن صوب لبه نحو الزمن الذي يمضي، والإفطار الذي حرم منه، وزميله الذي يرافقه إلى المدرسة آت ليطرق الباب .. وبباب المطبخ وقف ليرى بعينيه.. فحمد الله على سلامة أمه المنشغلة بالبحث عن الفأر وسألها:

- أي فأر تبحثين؟

اتسعت حدقتا عينيها، ولامست يدها عنقها كأن المطبخ خانقها، وعلت هامتها – لكنها ابتسمت وقالت: الفأر الذي حرمك من الفطور، الفأر الذي سيفرض علي زيادة مصروفك اليوم.

– وهل هما إثنان !؟

– الواحد والمائة بعضهم أولياء بعض.

– هل تعرفين ملامحه؟

– الفئران قد تختلف في الحجم، ولكنها متشابهة في الانقضاض والفتك هيا أوقف المسجل وأدر مفتاح المذياع لنستمع كالعادة لإذاعة المكلا فالوقت يقترب من السابعة، والبث المباشر يمتص أوجاع النادبة.

استدار جهة المذياع المثبتة إبرة محطاته على موضع الإذاعة، وهو لا يتصور أن يذهب إلى المدرسة جائعا على غير العادة، وخشي أن يصير اليوم واقعا يتعود عليه... اليوم

عبث بالفطور، وغداً بالغذاء، وبعد غد... وترجى أمه أماه أنا لا أقوى على الجوع.

– وأنا لا أقوى على منع الفأر وحدي، حتماً سيلحق بالذي سبقه، فارتقب، فغيرك لا يحصل على كل الوجبات.. عليك بُني مساعدتي في البحث عنه وإجباره على مغادرة مخبئه، ولكن بعد عودتك من المدرسة.

– وهل سينتظر إلى أن أعود!؟ لقد حدد أرض المعركة.

– كلنا ننتظر، ولكل أجل كتاب، خذ عشرة ريالات مع العشرة سد بها أفواه فئران بطنك. وكانت تحاول مسح آثار الحزن..

انفرجت شفتاه عن ابتسامة ساخطة، وآهة زفرت بها مرارة النفس: فمادام وضع الأسرة كما هو عليه فلا تحسن في المصروف. لو تدرين يا أماه أن في المدرسة أياد أصغر من يدي تنفق أكثر من مائة.. فما علمهم! – (القناعة كنز لا يفنى) – مطلوب ان ننسخها من الكتاب إلى الدفتر بخط جميل، المعلم نفسه خطه رديء.

– فأين يكمن الجمال !؟ أماه لا تضيعي الوقت فإذا ألقيت القبض عليه أطليه بالطلاء الصارخ ودعيه يهرب إلى جماعته – قبل أن تتنبه إليك – وما أن يصل إليهم ويختلط بهم ويتبيَّنوه فإنهم سيهربون.. أما خوفا منه أو نبذا له، ولكنه سيظل يطاردهم حتى يغادروا البيت – من غير جوازات سفر – وسيُحفظ عجيننا، فالعشرة لا تصل إلى البشرة، ولا يطيب لي أن استبدل النضارة بالنظارة. كانت تخشى النظارة، وخاصة تلك التي تعمي البصيرة فتحسست عينيها بيديها وحين تأكدت من خلوهما من النظارة تنهدت بارتياح هذا ليس وقتا للتهريج! إذا تركناها تهرب ستفسد عجين الجيران، وقليل من التحريات سيكتشفون أنه فأر دارنا، ويكون لهم موقفاً....

القي إلى المكان نظرة لا مبالاة، ثم اختلس منها نظرة وهو يقول: وأين هم الجيران، عندما أفسد الفأر عجينا؟

ربما هم الذين هربوه إلى بيتنا .. فار العرق، وخطت محذرة من تكوين رأي هو عجين الهواجس وسوء الظن والغدر، والتبرع بتصديره وأحكام من غير حقائق عودتنا عليه

سرعة اللسان حتى صار سلوكا لا نتراجع عنه – ونحذر من التدخل فيما قد ألفناه – أفسد علاقاتنا، بل حياتنا، ولأن الحرب تبدأ بالكلام فلا تسرَّب بني هذه المعلومات إلى أصدقائك، والتمس لنفسك نورا.

بسط يديه ومدهما متسائلاً: لم أفهم؟

– تعيش الزمن وربما تفهم، والكل سيلحق بالذي قبله – حتى من غير تنكيل – ها هو النشيد الوطني ينبعث من المذياع..

اتجه، وأصلح هندامه، وفتح الحقيبة وأخرج الجدول، وأخذ في ترتيب دفاتر اليوم.. انتزع كتاباً، فهاله تناثر قصاصات صغيرة من الورق، حدق في الكتاب، وروعته تعرجات في حجمه، انتابه مس من الاحباط ونادى أمه غاضبا: تعالي وانظري...

هرعت الأم إلى ابنها، وهو يبسط الكتاب أمام ناظريها، وبدأت تدور عينيها حول جسد ابنها، وحين اطمأنت إلى سلامة شكله، حدقت في عينيه، فصوب عينيه في عينيها

حين أحس أنها ترشقة بعدة أسئلة.. ولم يدعها تغرق في فيضان حيرتها، فقرب الكتاب من عينيها قائلا: ها هو الفأر في الكتاب....

– هذه صورة الفأر وكأنك لا تعرفه!

– كيف لا، وأنا رسمته مراراً في المدرسة قبل أن أشاهده في الدار .. أنظري جيدا .. لم يبق في الكتاب فقرة أو عبارة كاملة، لقد ضاعت الجملة المفيدة، أركان الكلام و الكتاب مقروضة – صار مشوها – ولم يبق على الصفحة إلا صورة الفأر. هل هذا فأر دارنا أم فأر الجيران!؟

وخشيت الأم أن يكون متحاملاً على الجيران. وتبصرت في سرعة القرارات والأحكام وتوخمت عواقبها فتحاملت على ضبط النفس حين بلغت المشاعر ذروتها، وردت عليه بني فأر البيت أفسد فطورك، أما كتابك فقد أتلفه فأر المدرسة، الفئران أينما وجدت شرهة، اذهب حتى لا يفوتك

الطابور الصباحي، ألا تصغي إلى الحديث الديني؟ ألا تسمع طرقا على الباب!؟

– اصطفاف من غير انتظام، فماذا أعمل بهذا الكتاب..! وولى مقهقها ودار ... صكت وجهها، وتاهت مجيدة إن كان انتقاما من نفسك ففكه قطع غيار للمقررات المتغيرة على الدوام، فالكمال لله...

انحنى، وحمل الحقيبة المثقلة فوق ظهره ونفسه لا تقوى على حملها، ثم خطا خارجاً وهو يردد ... وقل رب زدني علماً لعل هذه تصلح على واجهة تجارية، كما صلحت تلك للخط الجميل في المدرسة. وصفق بالباب خلفه...

أكتوبر ٢٠٠١م

الطعم والنكهة[1]

هذه الأيام ليست شبيهة بتلك. كانت البراءة والحماس المفرط يأسران باعتقاد الحفاظ، ويدفعان بعض الناس لارتكاب بعض الحماقات.. والأفكار تتناقل وتتسع دائرتها وتضيق حين تصاغ ممارسة في الوجود الاجتماعي من دون وعي اجتماعي مكتمل... ويصيب الزهو ثلة بالحيف، وجماعة بالإجحاف.. وكانت نخبة دون انتقاء، ورغبة وأخطاء، وتضحيات لا تندثر، ومآثر لازالت في النفوس باقية... تبصرها بعد حين؛ فوجد الأصالة لم يطرقها إلا زميل رغم ما شاع وذاع.. وبوضوح رأى وجهي القمر فيهم، وبينهم الطفل الذي يحبذ اللعب بالنار على الأكل بالطبع، والضبع غزير (الشعر) كثيف (الشعر) يغريه حفيف الشجر، ويهيجه دوي الرياح بين الصخور بفريسة متعامية تقع بين أنيابه.

---

١ - صحيفة شباب، العدد [١٧٣]، ٢٩ مايو ٢٠٠٢م.

ذلك القياس لم يضعه إلا حين عاد على الدائرة ووجد الناس في عجل تعيش اللهفة، وتسابق الزمن في نمط مغاير للحياتين... جذاب ورهيب، ومترف ومجحف، متجاهل ومستكبر، ناكر وقاسي، بذخ وإمساك، وقليل ورع ومحسن وشاكر... خشي أن يقع عليه السقف وأذنيه يخترقهما أزيز الطائرة، ووجد الماضي يأسره حين يكبله الحاضر والإمكانيات لا تنقصه... وودَّ أن يرى الإنسان، لا ما في يد الانسان، وتنشط الذاكرة، وتدخل خياشيمه نكهة الماضي التي اشمأز منها وعافها على مضض خوفاً من العض. وثار ودنياه لا تستقر على حال تضحكه تارة وتارة تبكيه، ورثى لأهل الثبات ووقوعهم بين الكلمة الأولى واليد الطولى... واشتعلت الذاكرة تجفف خريطتين رسمتها دموع العينين فوق المقلتين.. فلا هي بالوساوس، ولا هي بالعشق، ولكنه تعبير عن نفس قلقة في ساعة تعسة... فاللامبالاة لها مذاق خاص، والشرب من البئر ورمي الحجر فيها صار منعشاً، وإضاءة شارع وإطفاء منزل إنجاز عظيم، وتصميم الضمائر قبل /العمائر/ تخطيط، ووئد

الطاقات والموهوبين في المناطق البعيدة أو المنافسة إبداع... حتى صار الفقدان يظهر في خطوط الكهرباء أكثر من الواصلة، والعداد لا يتراجع حتى غدا الانفصال بين النور والظلام، والعتبة والدار أمر وارد، والماء العسر واليسر بات كالغدر والوفاء، يتجرعه بتقزز أو يتذوقه على مهل، والسيل يحمل في ظاهره الرحمة، وفي باطنه العذاب... وارتوت شجرة الأحزاب الفرحين حتى تفرَّعت أغصانها وأزهرت يأساً وأثمرت الإحباط.

– ولكنك كنت تملك ثمن عصير الفواكه ولا تجده، وتنام وباب الدار مفتوح... وبالتوالي صارت أمام البصائر كل العصائر والأيادي /قصائر/، واللحم في العيد تذوقه إذا جاد به المحسنون إن لم يضلُّوا الطريق وأنت تنتظر، وعلى باب الله تنام وعيناك مفتوحتان، وشعور داخلي وراحة نفسية ليست في المال أو الجاه تنشدها... من منا بلا ذنب – وكل مثاله منظاره ومنظوره.

من ذلك أنه كان رئيساً وبجانبه مساعداً ذا صفة إلى مهنته، وقد اختلفت الرؤى ولم تختلف الأفكار كثيراً – لكن الاختلاف المتنامي أخذ يضايقه حتى بات الضيق خوفاً أن تفسر رؤاه ومواقفه تفسيراً سياسياً ويجد نفسه أمام أصابع الاتهام بلا وطنية موصوفاً بالرجعية أو الانفصالية – المشجب – حتى خال نفسه محاطة بقوى داخلية وخارجية تتنازعه... ماذا يفيد أن يعبر عن إرادته، وماذا سيستفيد أن يكون صاحب قرار؟! احترام الإنسان والعمل سلوك غير مهضوم، ونسب الطيبة والشراسة والاستسلام موزعة بين الإنسان والحيوان في – الصبر والاعتداء والخوف – وخشي أن ينتزع من بين أولاده، فما دامت هناك فسحة قصيرة للتلاميذ بين الحصص الذين لا يقدرون على إملاء البطن في البيت حينها، ولا يملك أغلبهم ثمن الوجبة في المدرسة حتى أن الحميات تنتشر فيهم، وتحد من قدراتهم، فإن له فسحة تمنحه التحرك والابتعاد عمَّا يعكر صفو حياته، ويقلب كيان أسرته كالحب بين المطاحن.

– الهجرة مشروعة – وفي الحال ممنوعة، وأوجاع لا تحتمل الانتظار... وفي صمت هرب إلى الحلم متمرداً على واقعه ليصنع في المستقر الجديد حاضراً يعيشه بسلام لمستقبل آمن..!

في الغربة ثمان سنوات مكثها، شعر بالهدوء ولم يحس بالراحة التي تاقت لها نفسه حين طالت الغربة؛ فالفراق والبعد والعمل عند الناس لم يتعود عليه – وما عليه إلا أن يوطن نفسه على الصبر والاحتمال... وتبدل الواقع، وتغيرت معه أشياء حملت بين أجنحتها الآمال والآلام، ومن جوفها استبشر خيراً فعاد، وحط الرحال بين أهله وناسه وقد سكن بيته الجديد.. لم ينتظر، وخرج قاصداً مساعده الذي أجبره على الهجرة .. وطرق الباب، فانفرج وبدأ صاحب الدار يبرز... ودارت العيون في محاجرها حتى التقت العينان بالعينين... وفغر فاه.. لكنه بادره بِابتسامة فاترة ولم يترك لحاله الدهشة والارتباك التي أصابت المساعد أن تستمر فسارع بالسلام، فرد التحية في خجل ووجل، ودار أمام عينيه

شريط ظنه أسوداً... ولكنه رأى من الصور ما رأى وتوقف عند نقطة خاصة. كيف نَكَبَ به رفاقه! ولو واصل لرأي العام. وشد انتباهه عندما قال: أتتركني هكذا بالباب واقفاً! أعرف ضيق مسكنك لكن صدرك أرحب، وقد أحببتُ أن أزورك في بيتك زيارة قصيرة.. على مضض دعاه إلى الدخول معتقداً أنما جاء شامتاً فيه، نافثاً بعضاً من كرهه الدفين، على ما صار من ذلك الحين. وأحضر الشاي وجلس صامتاً... فلم يدعه يغرق عميقاً في التأويل فسارع يقول: جئتك قاصداً خيراً، وقلبي معمور بمحبتك، من ساعة وصلت، وسألت عنك، الحمد لله على العافية، فهذه القطيفة واللفافة والكرتون هدية متواضعة مني لك ولعيالك أرجو قبولها، لا تظن أني أسخر منك، حاشا لله هذه أشياء تراها أمام عينيك، أنت تستحق أكثر من هذا – لأنك أنت السبب – في كل هذه النعمة الظاهرة علي. بنيت الدار وهيأتُ لفتح مشروعي الصغير لتساعدني فيه إن شئت وقت فراغك، وستحصل على أجرك... فلولا خلافنا فربما لا أفي الآن إيجار سكن لأسرتي

الكبيرة والاعتماد على الراتب، والراتب لم يعد يكفي... في الغربة فارق العملة ساعد الكثير، ومنح الفرصة، والفرص غواية أو هداية، الإرادة والتوكل – خلقنا لنعبد الله لا لنتمتع ونأكل كما تأكل الأنعام... الحقد لا يورث إلا الحقد، والعمر ليس فيه متسع لمواصلة الشر أو ابتداعه – الكرامة قيمة ليس لها ثمن – كلانا ذاق المر... خوفٌ رحل وقلقٌ حلّ... و/ كذلك يضرب الله للناس أمثالهم/. انهمرت عيونهما بالدموع فولدت ماسورة الاحتضان تياراً سرى في مصباحي عقليهما فشعا نوراً أضاء المكان من حولهما.

٢٠٠٢م

وللمدينة قلب

فتحتُ نافذة الغرفة، فسقطتْ أشعة الشمس تحتل بقعة من أرضيتها.. فتزينتْ بالضياء، وتجملت بالبهاء، فتمطى الجسد البارد حيث دبَّ الدفءُ فيه، فأمسك الصحيفة، وحملقت العينان، وسددتْ سهامهما.. قلادة على صدر، ماء على جمر، عدوى أسيابها معلومة، الفعل من قبل معلوم، ظهور بعد غربة.

الحاجة لفنجان من الشاي في المقهى تدفع، فألقيتُ صحيفة الأمس دون تعليق، وتركتها للعقول والأيام تكشف مكنونها، وأقبل بها كالعادة.

فأبقيتُ النافذة مفتوحة ألتمسُ الناس.. نسمات عليلة تهبُّ من خلفي، ترفع ردائي عن كتفي راية ترفرف غير بعيد، وبعد عوج وامت يهبط بساطاً أمامي على الأرض. حمدتُ الله أن وقع قبيل المياه المتدفقة من المجاري المكشوفة التي تنساب بين القمامات – نافورة في حديقة – وتمثل لي شبح

الخوف من إرهاب أسراب البعوض، وقصفه الذي لا يخطئ في الظلام. وضعتُ خططاً لأتفادى القرصة الأولى، ولأنني غير جادٍّ حتى في الوقاية حددتُّ إغلاق النافذة فقط، ونظرتُ إلى قرص الشمس، فدمعت عيناي، ونزل رأسي: مغامرة غير مأمونة، وانتحار لا قِبل لي به.. ما المانع أن أتصالح معه طالما خالطت القطط الكلاب، فها هي تجوب الأسواق ليل نهار مطمئنة، لا همَّ لها سوى بطونها وفروجها، والفأر في القصر يهزُّ ذيله! والطائر قد نزل يلتقط الدود والحشرات.. ونجد ولا نجد! وسيأخذ كل ما يريد! فالقوى غير متكافئة، هدنة. حتماً سيخترقها. تأففتُ، والتقطته وهممتُ بالقفز فتوجست الوقوع حيث لم أتدرَّب عليه وأنا تلميذ في المدرسة، فألقيتُ اللوم على معلمي، ومعلمي يلقي.. سيمضي الوقت في لوم واستنكار، ومعه العمر يمضي، وأنا مكاني لا أمضي!.

والعبر تلج لبي وتغادره من غير اتعاظ، وفي أقوالي أتبجح: من لا ماضي له لا حاضر له – وما الحاضر إلا وليد الماضي – غيرتُ توجهي، لأتخلص من هذا الحال

أولاً.. واستخفيتُ بدلاً من التدبر حتى أشكل الإحساس التخيل.. وإذا النسمات تهز وجنتي، وشذا يبعث النشوة، وعبق يرفع يدي جناحين.. وألقت العينان نظراتها الآملة.. إنها الهجرة. عاد الأنف يستنشق الهواء استنشاقاً، فوضعتُ يدي ومسحتُ بهما صدري، وأتحسس.. لا تكوير، فضربته كَفَّاي.. خشخشة وسعال يتبعها. ماذا بالقفص؟ خبث النفس. ولم يسعني أن ألقي اللوم، فزفرتُ الهواء وما علق به، فكانت الأنفاس ساخنة، والثياب طاهرة، وكل أيام الشهر صلاة، وأرجو القبول. أنا لم أتقول عليها. هي قالت لي: أنت حرمه. لكنها لم تقلها ونحن على سعة السرير، وقالتها ونحن تحت السرير، نتلظى، كلما رفعنا رأسينا، أعادتهما حافة السرير.

– جرأة فات أوانها. وسال الدم، واختلط الدم، وتجمد الدم، ولم يعد للسرير صرير، ولا للخيل صهيل، ولا للديك صياح، ورقصنا على العويل والنواح مذبوحين، وانتفضنا على لطم الخدود وشق الجيوب، ولكنها لم تكن غيرة، ولا غضبة على حق، فتبادلنا اللوم وكلنا الشتائم ثم عدنا للنوم.

مـاذا تـرى؟! إذلالـي أم اسـتفزازي! أربـع عشـرة سـنة وثلاثة شهور من العشرة، خمسة أولاد وتقول لي أنت حرمه! هل ضعف المز؟ هل خانها التعبير؟! احتمال. هل تحققتْ أنني تعاليت وهي تستجديني ببعض ما أعطتني بسخاء – اعتراف – الأقرب أن شيئاً آخر قد رابها مني وماذا أفعل والكل امتر في بعضه! أنانية استحكمتْ خوفاً أن يزول، والأشياء أمام العينين تزول... لعلها أرادت أن تقول: أنت رجل ولا كل الرجال، أيكون إحساس أرغب في تأكيده، ووددتُّ أن أسمعه منها؟! لكن الإطراء المبالغ فيه ذم. الواقع كم من أنثى أصبحتْ رجلاً، وكم من ذكر بات حرمه. امتثلت للقوة التي شيدها استرخائي، وأسندتُ إليها ظهري فاستلبتني حتى خلعت لها أبوابي طواعية، وتعددتِ الأقلام، واختلطت الألوان، وعلى الآخرين أن يروا كما أرى، فخبطتُ فيمن استقام مع جوعه... وتلاشت الأحلام والأماني... يا شمس نافذتي بين الذكورة والأنوثة أشياء (وليس الذكر كالأنثى) أما الرجولة فتصنعها المواقف، والرجل الراشد يخالف هوى نفسه،

يبدأ رويداً في التكوين حتى التمكين وهو يشاهد النمل بتماسكه يبني ممالك... وأسير والحجر بيميني، والحفرة تلويني، وكنتُ أحسبها رواية أي فإذا بي أقع فيها، هل هو التواصل والانتظار، فاللبيب قد رأى كل شيء أُكِلَ عَدا (باسمك اللهم).

فجأة ومن غير إنذار دوى بوق العازلة، فصككتُ أذني، وانكمشتُ هلعاً، فرشَّني أنبوبها المنبثق من خزانها، وخفتُ على أعصابي من الإتلاف لأن قدرتي في التحكم يومياً محدودة، وأنا أواجه حركة سعر الصابون، وتمنيتُ حينها أن أكون الحمار الذي يقف أمامه، لأرى كيف تتحول نظرة الاستخفاف التي رمقتني بها.. تألمنا وناديا نداءً ظاهراً وخفياً، وبين الاجبار واليأس تعلمت من المجاري القفز، ومن دوي أبواق الدراجات والشاحنات الفزع من النوم، ومن انفجارات (الطماش) النط فوق الفراش بلا مهارة، ومن الحجارة والحفر الرقص بالخناجر... قبولة تقلق المضاجع.

طالـت المسـافة، وتنوعـت المشـاق، وكبـر الجهـد، فتنفسـتُ حـين تـراءت لـي المكتبـة، ووددت أن أتعلـم كيـف أتسـامح ولا أنسـى... ورغبـتُ فـي الصـحيفة، ودفعـتُ ثمنهـا، واتجهتُ صوب المقهى وأنا أتمنى أن لا يستفز النجاح أحد، وأن تتم الأشياء ولا يفتعل تعطيلها، جلستُ وأسندت مرفقي إلى الطاولة، وطلبت الشاي. نظرتُ حولي ووضع الشاي. طويتُ الصحيفة، ثم دسستها تحتي حتى لا يتداولها المارة تصفحاً، تستهويهم الإثارة والتسريب والتأزم والانفعالات، فإذا لـم تشـفهم يميلـون لاسـتدراجي لينقـل بعضـهم عنـي، أو يستعيضـون بمـا التقطتـه الآذان مـع بنـات الأفكـار لإصـدار الأحكام حتى تأصل سلوكاً يومياً لا يخلق موقفاً، ويسيئون لأنفسـهم ولا يشـعرون. سـبقت اليـد العينـين فأمسـكت كـوب الشاي ورفعته، فانفرجت الشفتان، لكن العينين وبسرعة فائقة رصدتا الذباب وهو يعوم فيه، حين أخرج عينيه من رأسه.. وفتشتُ على من ألقي اللوم هذه المرة؟ وبنفس الآلية التي أعدت بها كوب الشاي على الطاولة، دسستُ يدي خالية في

جيبي، ثم أخرجتها تحمل ثمن الشاي، فإذا بيد من خلفي تضرب كتفي ولم تربت، ولا أدري أهو كتفي الأيسر أم الأيمن، وكلاهما حواف. وانتفضت حين شاهدتها سيفاً يمتد أمام رقبتي، وكنتُ قد استسلمت لطعنة آتية من الخلف كما تعودنا لوقف المسير، أما اللعنة فلم نحسب حسابها، ثم رقصت أصابع اليد – لا مناص – فوضعت ما اختزنته يدي من غير أن أنظر لصاحبها أهو ذكر أم أنثى وأنا أهز رأسي بين الصدقة والتباهي لأتجنب الإلحاح من نفس مكسورة، أو تتصنع الانكسار، ولم أتجنب الأذى، والرضا لا يوجد، وكانت المعيشة ضنكاً.. فقد لحق التجويع التطويع.

انتصبتُ واقفاً، ووقفة تختلف عن وقفة، وقلت لصاحب المقهى: كنتُ أود أن أخفف عنك الكتابة.. ولكن خزن في موقعي على (الانترنت) في صفحة هم الليل والنهار ثمن كوب الشاي.. ورجوته أن لا يسكب ما بالكوب على الرصيف حتى لا يقلع الذباب من الطاولات، ويهبط فوق الرصيف فتدوسه الأقدام العارية، والإطارات العريضة التي

تنحاز عن خط سيرها، وانطلقتُ عائداً وفي رأسي فائض من المكر معروض للتصدير. أقفلتُ النافذة، واستلقيتُ فوق سريرنا ولم أدر أن مسيرة الظلام قد انطلقت إلا عندما شعرتُ بالخفاش محلقاً فوقي، غطاءً جويّاً للزحف الذي بدأ. لم أكلف نفسي إشعال شمعة، فقادني ذلّي لانتظار ضوء الشمس.. وتجسدت القيم التي تمرست بها واقعاً.. عجز فاضح، وقد أعطيتُ الضمير إجازة إيمانية حتى ربطت العواطف بالعلم الشرعي، ليس هذا، ولكني أتصنع المرض كذلك، لأحصل على إجازة طبية.. راحة لا أجدها إلا في المرض، لكن بعيداً عن رعب الفحوصات وتوابعها، والواجب ولوازمه.. وتداركت أن المسألة إنسانية عميقة كآلام المخاض تتحدى الواقع، فأسرعتُ وناديتُ زوجتي، ثم اجتبيتها، والتحفنا.. فنثرت من الفم المهتاج كلمات شهية تركبت جملاً ملهبة، فعزفت مهارة الوجدان على مهارة الجسد نغماً عذباً قام له شعر البدن راقصاً.. وتهادى الجسد على الجسد، وصار العراك عراكاً، والانصهار انصهاراً، فأمسى الجوف بركاناً يقذف حمماً حتى

هدأت الأنفاس، وأخذت الحياة تتجدد، تدب في البذرة، وتنمو سنابلاً..

توقف استنطاق الذات حين أحسست يداً ترفع اللحاف، وتمسح العرق المتصبب من جبهتي، ثم تفك إزار قميصي المبلول، فلا أثر لشم، ولا بلع، ولا شفط، جلست أنظر في عيني زوجتي وهي تقول: ألا تنهض! فالماء في القدر يغلي على الجمر، رواية اختزلت، وحمى كما أرى زالت.. فقمتُ وفتحتُ النافذة، وكانت صلاة الفجر جماعة..

الصّنيعة[1]

نقلها إلى المستشفى، فقرر الطبيب ترقيدها، استلم الروشتة وجلس محاذياً لرأسها وهي ممدة فوق السرير... نظر إلى وجهها، ابتسمت في وجهه مسح بيده فوق جبهتها، أغمضت عينيها ثم أعادت النظر إليه... أشاح بوجهه قليلاً، ونظرا إلى سقف الحجرة.. ليس معه ثمن الدواء لأخته – منتصف الشهر واستلام الراتب لا يزال بعيداً... اللجوء إلى صديق حميم لن يخيب ظنه، ولكنه لا يميل للاستجداء.. إباء وعزة نفس – وهو اليوم يشكو..، والحالة تفرض عليه أن يتجاوزها.. فكر وقدر، ونهض خارجاً من الغرفة متجهاً نحو بوابة المستشفى وسار في الشارع تحمله قدماه في خطواتها الوئيدة.

لأكثر من عشرين عاماً جمعت بينهما الصداقة، وصار الآن ميسوراً، نعمة مَنَّ الله بها على صديقه، فحمد

---

١ – الصَّنيعة: كل ما عمل من خير أو إحسان، جمعها (صنائع).

المولى وشكره على العافية والرضى...، وجاءه عصراً، وطرق الباب المفتوح، فأذن له بالدخول، دخل وجلس بجانبه وهو يمضغ القات مع ثلاثة آخرين، وهمس في أذنه يطلب منه خمسمائة ريال سلفة إلى حين استلام الراتب الشهري، فوعده إلى بعد صلاة المغرب – لا يريد أن يقوم الآن. فهل يقومون للصلاة – وخرج متضايقاً – هو لا يطلب صدقة، والصدقة توضع مباشرة في اليد – والمرض لا ينتظر – (لا تواعد محتاج، ولا تهزأ بشجاع).

صفاء النوايا هو الإكسير الذي يحمل الإنسان على الاستمرار في امتصاص المنغصات، فَصبَّر نفسه المكسورة حتى صلاة المغرب، وعاد بعدها إلى صديقه، فلم يدعه يجلس بل ناوله لفافة أخذها فرحاً، وخرج شاكراً مبتسماً له، والثلاثة في حديثهم يتواصلون مع صديقه من غير انقطاع.

وانطلق جذلاناً صوب الصيدلية ولكنه وقف ببابها، وقبل أن يدخلها فك اللفافة ليعد النقود التي بداخلها... توترت أعصابه، وانتفخت أوداجه حين وجدها قطعة من جريدة لفها

صديقه وليس بداخلها شيء... وكاد أن يصرخ لولا أنه كظم غيظه حين نظر إلى المارة حوله، والداخل والخارج من الصيدلية، وتبصر في أخته المريضة... ودار مغموماً مقهوراً، واعتقاد يترسخ في التفوق الساحق للمادة على القيم والروابط.. لكن صاحب الصيدلية قد رقبه من خلف الزجاج فخرج منادياً عليه... وترجاه أن يعود... فنزع الروشتَّة من يده وعاد إلى الصيدلية وهو خلفه. وضع الدواء والروشتَّة في كيس سلمه إليه، ثم دفعه برفق من باب الصيدلية من غير أن يصدر أي كلام من أحدهما.

وصل إلى المستشفى ووضع الدواء فوق دولاب صغير وتبادل معها النظرات... فوضعت يدها فوق يده فزاد تعلقاً بها... وسالت دموع الغادة فوق زهرتي خديها بعدما عزفت على الجفون لحنها الآسي، ونبتت على شفتيها ابتسامة عريضة كشفت عن حديقتها الزاهية التي امتزجت بالأمل.

قام وخرج يتمشى في الممر يفكر في مصاريف المستشفى الآتية.. قادته قدماه ليجد نفسه يمشي في الممر

المؤدي إلى عنبر الرجال، وتقابل مع رجل يعرفه، تبادلا التحية، وسأل كلاهما الآخر عن سبب وجوده ثم دلفا عنبر الرجال فقد كان الرجل مرافقاً لمريض يرقد في المستشفى، وتقدم إلى المريض فسلم عليه وجلس بجانبه يحادثه... حينها كان صديقه واقفاً بالباب وكاد أن يتراجع عن فكرته ويدخل الغرفة، وبعد أن تبادلا النظرات لوى عنقه وخرج عائداً إلى أخته، وما أن غاب عن الأنظار حتى قام الصديق وقد دفعه الفضول والحمق، وسأل المريض عن سبب وجود ذلك عنده، فأخبره أنه كوجوده هو الآن – زيارة عادية – وزادها أنه عرض عليه خدماته فشكر على مواساته وشهامته، مرتاحاً منه فقد أدخل السرور إلى نفسه.

اغتاظ مما سمع... يستجديني ولم أناوله... ومع ذلك يعرض خدماته! ما هذا الصنيع..؟! ولم يجلس بل خرج مسرعاً ولحق بصديقه. استوقفه وأراد أن يبدأ الكلام، فبادره بالقول: أنت من وقائع الماضي، وجرح مفتوح لا تجبره الحلاوة ولا الطلاوة، أتسامح ولا أنسى، فعل شنيع، وقسوة

مقصودة. همَّ بالكلام، فسارع ومدَّ يده وقرَّبها من فمه وهو يواصل كلامه لا تقل شيئاً فالكلمات غير قادرة عن التعبير، وعاجزة عن التبرير. تركه واقفاً ومشى فمنادياً من الخلف يستوقفه، ويقترب منه، ويضع في يده ثلاثة آلاف ريال وهو يقول: هذا دين لك عليَّ... وقد تدبرتُ المبلغ حين علمت بمرض أختك... فأرسل كل منهما ابتسامة إلى وجه الآخر.. والأرض لا تزال بوهادها ومرتفعاتها.

نبضُ قلبي لستُ وحدي[1]

– الشكل والمضمون، الهيكل والأحشاء، غلَّقتُ الأبواب، غلَّقتُ النوافذ.. أذناي لا ينغلقان ببساطة ليس لهما أقفال.. طنين داخلي ذبذبات من الخارج، أشكال تترى، زغللة.. لا عتاب.

وماذا بعد؟! برودة الغرفة أم برودة العواطف؟! الإحساس مواجع..! رفستُ اللحاف فطوقني، انكمشتُ صحوتُ مذعوراً، انكشف الغطاء عني.. نظرتُ في الأشياء حولي، لم يطرأ عليها شيء. خمنتُ أن النوم غلبني كما غلبتني برودة العواطف، ماذا تظن؟ افتتان، افترضتُ، كيف أفترض وأنا متوتر ومرهق! أحلام مزعجة، كوابيس مفزعة. لماذا لم أقل أنني قمتُ وأشعلتُ سيجارة لتهدئ أعصابي.. هي ليست قاعدة، وأنا ليس عندي سيجارة كي أشعلها وأدخل بها الحمام، أطمئن نفسي محاولاً إخراجها من قفصي القلق

١ - صحيفة شباب، العدد [٥٢٩]، ٢١ أكتوبر ٢٠٠٩م.

والحيرة، مع أنني لستُ في حيرة النعمان.. آخر ما قيل لي: العرب تخدعهم عواطفهم، وبصرهم حديد، ولا يعتبرون تغذية وفخاخ وتعقيد وتمزيق رجائي أن تثق فيَّ، الأحداث انتزعتْ الثقة. لا تضعني موضع ريبة وتحكِم فن المؤامرة، إن لم تواجهني مباشرة – المؤامرة وصفت أنها فن – أنا وإياك في مهب الريح عالمياً، الشمعة لا تضيء في مهب الريح سماعون للكذب، لا تقاطعني.. دغدغة في ضحك ودموع، وإلا لما كانت الرياضة والسياسة سواء مجرد لعبة حياة البشرية لعبة، القهر والدمار لعبة! لا يشنع المرء السوي في حق نفسه..! ما سبق وما هو آتٍ افتراضات ونتائج، ومع ذلك لا يحيى الإنسان وحيداً...

ارتقى بصري الجدار فألقيتُ نظرة على الساعة الحائطية المضيئة في الظلام كما تضيء حواف مفاتيح الكهرباء لتهتدي إليها كذلك من الظلام.

نمتُ ساعتين، تقدير، زمن غير كاف، هبط بصري إلى أطراف أصابع قدمي، كم أحتاج؟! لا أستطيع كما لا

أحصي كم ساعة، كم سنة أضعتها.. دع غيرك يقرر. من لم يستطع أن يحدد لنفسه فكيف به يقرر للآخرين.. لا، لا يمكن لا آن في وقت واحد! رجاءً توقف عن اللا ات- الزمن لا يقف.. أفسح الطريق ولا تطيل التعطيل.. الفجوة بين اليقظة والمنام تضيق، وبين الواقع والرغبة تتسع.

جمعتُ بين الوسادتين، أي وضعتُ الوسادة فوق أختها، واتكأتُ على مرفقي ورفعتُ رأسي المثقلة بهمومي، ما نوع رؤوس الذين يتحملون هموم الآخرين؟ شمولية العواطف، شهامة، استعداد للتضحية من غير انتظار!! فما مقدار الطاقة وقدرات التحمل التي يتطلبها هؤلاء؟! من دون تغليف، قليلاً سحبتُ جسمي إلى الخلف شبكت يديَّ.. الاشتباك إلى اللحظة محدود، لم يتعداني، أنا أفتعل، أُحرِّض!! هو بين يديَّ فقط. وضعتهما تحت رأسي، خلف رأسي، ما الفرق؟! المهم أسندت رأسي وتركت الجسد الذي لا زال متصلاً بالرأس مسجياً فوق السرير كلٌّ مكمل بعضه.. لاجز.

حرارة الرأس تدفئ راحتي الباردتين، يرتفع نبض قلبي، هل كل القلوب يرتفع نبضها في المواقف والعواطف؟ لست أدري! وإذا كنت لا أدري فمن الذي يدلني إلى الذي يدري؟! الحرارة! لست وحدي.. لم تسر إلى الأعماق كي أحس لهيب الظهر واحتراق الداخل.. لنفرض أنها قد تسربت وأنا لم أعد أشعر هذا يعني أن الإحساس قد تبلّد، وإنسان من غير إحساس بذرة وباء تستأصل شأفته، وحتى لا أكون قاسياً أو ضيق الأفق نكصتُ عن هذه الفكرة فرضية ونظرية يلحقها قانون، ربما التطورات تثبت شيئاً آخر، لنقل أنها الحمى التي أثّرت على الجسد والنفس، قل العلاقات، وما الاختلاف؟ كالفرق بين القيم والأسعار.

حال غريب، الغرابة أننا مشاركون في صنعه، بالتهاون تضاءلت الإرادة الحرة وباختيارك حتى سلبت. والعودة؟! في صياغة تربوية توصل الأصالة بالحداثة، لا انفصام.. خطاياك في حق الله ونفسك مردها إلى الله، أما حق البشر والبقر، والشجر والحجر يحتاج إلى إصلاح شامل

بدايته كانت تعطيله للتعقيد والمغانم، شبكة والشباك أنواع. على أية حال وضعك محرج.. إلا إذا أدركتَ وأرجعت، ولمت نفسك وبدأتَ الخطى.. لا حسد.

زخرف القول، إعلانات مزينة، ترويج للاقتراض، التقسيط والعجز، وديون تقود إلى السجون.. جشع، ارتفاع في الأسعار وهبوط في الضغط، كل شيء في الغرفة يحتاج لوصف، ووصفات، إذا استمر الحال هكذا تكون مغارة ملآى باللآلي على فوهتها صليل السيوف وصهيل الخيل، حجرات دماغي ملأتها بالهموم والشقاء. أخشى الفزع والهلع، ويرهبني النزع، الأحلام والأوهام وكثرة الكلام أبناء الفراغ والاتكالية. العواطف الجياشة وصفة لا حد لها بين الأحبة، وبين المكلومين تنساب في كل الاتجاهات لكنها لا تتسرب في كل الترب.

لن أغادر الغرفة إلا بعد الفلق، النور الشامل يبعث الطمأنينة في نفسي، وهو لا يأتي إلا في وقته.. يستجد بعض

التعويض لكنه محدود المساحة فهو لا يغنيني.. أنت لم تحدد منشأ مخاوفك!

اخترق بصري النافذة المفتوحة، أنا غلَّقْتُ الأبواب والنوافذ. فسر! ربما الإرهاق أو توهم، أو شخص ما تسلق وتسلق وتسلق.. يتحرَّش بي، أو أنني لم أحكم إغلاقها ودفعها الهواء فترة نومي، لكن من أين أتاني البلل.. الغرفة المضاءة في العمارة المقابلة لنافذتي حولت توتري إلى ظنون وفضول فتلصص.. أمعنت النظر فتلاشت المخاوف وحل الاستمتاع ولم أعد في عجل من طلوع الصبح، ولن تكون المشاهد مثيرة ما لم أمزجها بالتخيُّل، وآخذ الناس بالظن. أنت من هواة الابتداع والتصعيد..!

الغرفة مسرح والنافذة الحاجز الرابع وقد كسرناه، وما دامت لي رؤية صائبة أو خائبة أُصيِّرهُ فنأ تفرزه الحياة الاجتماعية، وجوهره نشاط جماهيري واسع في دورة الحياة – لكن أسمع ما لم أتعود سماعه المسرح السياسي، مسرح الأحداث، مسرح الجريمة، أين الفن وأين الواقع؟! ماذا نطلق

على المسرحية والأداء التمثيلي و... استهلاك تم بنهم فلم يجدوا للكذب والخداع والاضطهاد والاستئثار والدمار أسماء إلا مدلولات أضدادها.. لقد قلبوا لك الأمور..!

الحق بعد النظرة الأولى أن أغض البصر، لكن الذي حدث أَنْ استطاب لعينيَّ ما أرى، لا تشغلني بالتسرع على وضع النهاية سيكون المشهد مبتوراً – آه تذكرتُ ما ظاهرة البتر السريع هذه الأيام! صمت! أنا شغوف بالتطورات، بالإثارة، أن أجعل المشهد يكتمل، أن أنضج الأحداث، أن أخلق عنصر المتعة.. شبق وشهيق، نهيق، وصرير سريري أم ذاك السرير.. أنا وحدي!! الاستبطان، تنمية الحدث توظيفه، التركيز، التكثيف، المزج بين الهم العام والهم الخاص، الرؤية، أحاول شق الطريق لاكتمال البناء الفني، ومع ذلك فالكمال لله عز وجل. استمر للعبرة لا للغبرة (وكن كعود الدخون كلما زاد إحراقه... غلامان أمردان هكذا أتصور وقد دلفا من الباب واحداً تلو الآخر، ولم لا تكون فتاتان، كلهم قصر والقاصر في نظري لا يكبر فالولاية لي. رجاءً لا

تشتت أفكاري بالأراجيف. النافذة في الطابق الخامس يصعب على أحدهما الدخول منها... بجانب السرير وقف أحدهما، لا الذي ولج أولاً يستره سروال قصير، زد وصفاً وشعر ناعم ممسد لم ينكش بعد، من فضلك دعني أصوب نحو الآخر الذي أغلق الباب – لا ضرورة لكثرة الوصف الخارجي – إنه شبيه بالأول أتاه من الخلف ووضع يديه فوق كتفيه، انتفض، هل تصرفه عناداً وصدوداً؟! جلس على حافة السرير وقد أحنى رأسه، دنا منه وزاد شعره تمسيداً نزلت يده إلى العنق فالظهر، هذه مداعبة، بدأتُ أتلذذ نسيتُ ما ورائي، حتماً سيبتزه ويسرقه أغلى ما عنده. نعرف البعض توجد عندهم القدرة الكلامية على التضليل وقلب الحقائق، والأقوياء يبتزون الضعفاء غفلة ووضحاً، وما سيحدث نتيجة للاستدراج ابتزاز تذويباً أو عنوة. اقشعرَّ البدن، فابتعدت اليدان ثم وضعها بين الخاصرة والكتفين.. رفعه ثم أنزله وسط السرير ومدده.. الآن تتداعى الأحداث المثيرة.. حقاً أحتاج لمنظار أنقل المشهد أمامي أشاهد عن قرب ووضوح تام، الآن أنا أرتقي فالخطوة

التالية تبان واضحة.. الكذب، استباق الأحداث، المؤمن لا يكون كذاباً، التروي أفضل.. ماذا يفعل؟! يقبله في وجنتيه المحمرتين.. إنه يغطيه من قدميه حتى رأسه، ها هو يوليه الدبر، ويغادر الغرفة في هدوء ويغلق الباب خلفه، لو سارت الأحداث حسب تصوّري.. سيكون تزييفاً للحقائق، بل شيء لم يحدث وأصبح غير موثوق فيه.. استعنتُ بالمحفزات فأيقظت ضميري، وتقززتُ مما توقعته، قد يحدث وأنا على يقين أن التوقعات لا تعني الوقائع فانخفضت حرارة الغريزة وتفهمت أن كل لذة مرهونة بوقتها، وأن الذي يطول زمانه هو أثارها، فقررتُ أن أكثر من النوافل أكفّر بها ما قمت به من تجسس وتلصص، وعاهدتُ نفسي أن لا أفشي ما رأيت لكل من رأيت، حتى لا يتناقلونه ويحوّرون فيه إلى درجة تصل بهم إلى طمس الحقائق فتزداد العقول حيرة وتشتتاً والقلوب تفرقاً فتسود برودة العواطف لحد اللامبالاة – طامة كبرى – إذا استمتع بعضنا ببعض حينها لا مفر.. والخلاصة قصور في التربية وإهمال للأذكار.

وتـذكرت أطفـالي فصـككتُ وجهـي، التنصـل عـن المسؤولية ضـعف وجـبن وأنانيـة، واللجـوء إلـى النفاثـات فـي العقد لا يغنـي شـيئاً عـن الصـمد. علـيَّ أن أتداركهم صـغاراً، استنكاف، نظرات متعالية، تقزيم متعمد، إيقاد وتهييج.. مسألة السحت طافيـة عمل موبـق، وتمـادي بـدل الإقـلاع، اسـتنزاف ومراجل تغلي.. ولا يتناهون..!! عذر أقبح من ذنب إن قالوا (قُلوبُنا غُلف).

أنـا تعبت، أحمق، المسألة تحتاج النزاهة، إلـى الإرادة نحـو التطهيـر الشـامل.. عـزم وحـزم وحكمـة، فكـل حكـيم سياسي، وليس كل سياسي بحكيم. حصيَّة وقعت في حجري بعـد أن أصـابت صـدري رميـة نبهتنـي التفتُّ، جنـدي ببـاب السيارة شاهراً مسدسه! هيا ضـع يديك فوق رأسك، واخرج من السيارة، مباغتـة ألجمتنـي، هو الـذي فتح بـاب السيارة، وكمـا أمـر خرجتُ، تلفت.. أكثـر مـن رهـط مـن الجنـود علـى بعـد منتشـر طـوقني والسـيارة والجنـدي الـذي لا أعـرف لـه رتبـة، صـرنا تحـت الحصـار.. لهـوة وشـهوة وهـوة لا طاقـة لـي بهـم،

كيف سيكون تصرفي لو أنني أحمل حزاماً ناسفاً.. أين أنا وأين هم.. واحد لا يكفي، ربما خيالي ضخم العدد لألفت الأنظار.. شهرة.

تلقيت الأمر الثاني بالابتعاد – بالتنحي جانباً – عقدت يدي تحت رأسي سلفاً بإرادتي، والآن شبكتهما فوق رأسي عنوة – القوة التي سلبت إرادتي – وأكثر ما خشيتُ أن أتعود على الإشباك فيما يلزم وعندما لا يلزم.

اقترب، دار حولي تفحصني، فتشني.. كيس تمباك ورماد، كيس نشوق، علبة سجاير، ثلاث لفائف تامبول. تتابعت الأسئلة: إطاران فقط على الرصيف، الإشارة لا تعمل، ورأسي المطأطأ فوق عجلة القيادة، وفي هذا الوقت!! أظن أنه قد اطمأن وأنا أخذته بالظن – سوء فهم مني – إذ أتبدد عنده الشك والريبة، ولم تصله الشائعات المغرضة من الحاقدين، أتوقع سيحسب مخالفة بسيطة نحلها ودياً، ويتغاضى، لكن التغاضي ينمي المخالفات، فاستغشيت ثيابي حتى لا أسمع ما لا يسرّني.

– سهران؟!

– أخرجتُ رأسي حتى لا يعالجها بضربة تفلجها: ومتى أحسستُ بنعومة النوم!!

– تخزن؟

– في تقديري قوت أيام ثلاثة، ليس عندي مخازن ولا رصيد، هذه السيارة أنا وهي نقتات عليها.

– أنت مصاب؟

– مخاوف من أمراض عقلية وسلوكية أن تبدأ.

– مم؟! انفرجت شفتاه عن ابتسامة خفية، أنا حدسْتُ ذلك.

– ليس من الفيروس، لكن من اللقاح والتجريب والحضانة، والشك في السلامة، تهريب وكسب سريع وتربُّح، وسموم في كل ما آكل وأشرب، شعور بالوهن، تآكل جسمي، والتخابر في المقابر...! صفعني بسؤال وقد بدت الصرامة في ملامحه وصوته المتدفق: أين تخفي الحبوب الحمرة البودرة، السلاح؟

لـم يرفـع جهـاز اتصـال، ولـم يعـلُ صـوته حتـى يسمعونه.. لعلها لغة العيون.. أنا لم أكن أقل منه تدافقاً في الكلمات التي فاه بها فمي: لا سلاح، لا، لا، لا...

– أنـت مـن أصـحاب الـلا ات إذن!! قـاطعني، ولـم يحسـن الاستماع!!

– نعم المرأة أنا الذي أغضبتها مع أنها أكثر قدرة على تحمل ضـغوطات الحيـاة، وعلـى حملـي أيضـاً فلم يعد الـوزن وزنـي، لكنهـا انشـغلت بنفسـها وطفلينـا وأنـا نصـفها الآخـر، نفقـاتي الشخصية زادت في غيابها.. ما من عاقل يحيا دون زوجة.

– أتدري أين أنت الآن؟

– في شارع الحب.

– ألا تعايش الأحداث؟

– قلت في سكينة وتواضع: متواليات تغير الأشياء والسلوك فتشكل الحياة، على قيم وأخلاق جديدة تتناسب مع التطور المادي ولا تبني حضارة!!

– إنه شارع الموت، الاسم المتداول على ألسنة الناس منذ سنة.

– أظن أنني فهمت ما يعنيه: تطول كلما طالت ألسنة اللهب، ولا تحرق النار إلا حيث تصيب.

هو صاح في مجموعته: مغفل! وأنا تعجبتُ كونه لم يسألني عن رخصة القيادة.. تنفستُ حين شاهدتهم يبتعدون ثم يتوارون رتبة واحدة. التقطت محتويات جيوبي، وقدت سيارتي... ثم أوقفتها أمام محل بيع الإطارات، رفعت كرسي القيادة لأسحب ثمن إطارين اشتريتهما بالأمس.. لا أثر للنقود، استعنتُ بالكشاف الكهربائي اليدوي، فلم يُعِدْ إليَّ النقود، حمدتُ الله أن السيارة لم تشلح، ولم يبق شيء غامض.. لقد سُحق الحياء.

صمت في الوقت الذي حان لي فيه أن أتكلم.. فهنت وسلبت، ظواهر حولي أفاضت في اقتناعي فلم يعد يهمني أسباب نشوئها أو عوامل تطورها، لا يأس.. ولا أسى.. (مُتَبَرٌّ ما هُم فيه).

كُشِفَ عني الغطاء، ضوء في غرفتي، أجلت بصري زوجتي بجانبي! استبشرتُ! صحت: لاح الصباح – مرتين – أنا الآن متأكد من ذلك. الآن أرى الأشياء والمسميات على حقيقتها. نهضتُ فسبقتني ومدت ذراعيها وبسطت راحتيها تحتضنني، فامتزجت الأنفاس بالأنفاس، أحسست دفء العواطف فشعرتُ بالأمان.. وضعتُ يدي على خديها وحكت أصابعي خلف أذنيها ولامست وجنتيها ونظرت في وجهها كما هي تنظر.. الدموع تترقرق وتنساب على خدينا معلنة أن بيننا ما هو أقوى من الحب.. إنه الوفاء.

الشجرة والبأس

الوشاية وباء، والتحرُّش غواية، والشائعة تتجاوز حد جسّ النبض، والخطورة في تناقلها / والإجهاض في اختلاف النوايا / شيء جديد؟ شيء أخبار؟ قالوا..! متعرّض..! (ما سيبي)!! ثم تهكُّم وخذلان، فتنافر.. ومن علٍ يرشّ القطّ بوله فهرشان.

الغنم في الدار، والطفل لبنه مجفف.. يعتدي ويبكي لانتزاع لعبة في يد أخيه، ولا يرى اللعبتين في يديه.. فإن تصايحا تهرع الأم فيتركان كل اللعب ويناما.. فمن ظنَّ أن كل مرحلة الطفولة سعادة فقد حادَ عن الصواب، والغنى المفاجئ والافتقار الجماعي في طريق المألوف، وكل شيء تمام، وما هو بالتمام، وتكرار الكذب يظهر الحقائق، والتقاسيم تفضح الأحاسيس.

– النقل، والنقل الكاذب ينتهك حرمات بيوت آمنة، ويولِّد نتائج مرعبة. والتشخيص المضلل يقود إلى تعبئة محمومة.

وتفشي الخداع أرهق العقل والأعصاب. والتناقل لجزئية خبر أو معلومة لم يرَ مشهدها تكون الشغل الشاغل بما لا يجوز في تكييفها وتعميمها آليَّة، دون تقدير لانعكاساتها على الأسرة والمجتمع، ولا يتناهون..!! أنفسٌ صُدمت، وأخرى صعِقت، وثالثة فاقت بعد فوات الأوان.. فلا خيرٌ يقال، ولا صمت يُرتجى.

تطاول مِنْ تهاون..! وشحنات تمرّ انتشاءً بالحدث المقيت لا [بالكولوم] بالقسوة التَّعوُّدية لا بالاتعاظ، وتخلَّقَ الجانب المرضي في الإنسان بالمسؤولية، ورفع شعار وئد الكفاءة (فأهمل الرجل الذي ساعد على الإنجاز بعد الإنجاز) باعوا، وأكلوا ما قبضوا، وجلسوا القرفصاء يلطمون خدود بعضهم، ولا تحمّر!! وتتفرع أغصان ضعاف النفوس غيرة وحقداً، وخديعة يهوي بها الأبالسة سياطاً على كل من لا يتصور كل هذه البشاعة على العفويين الذين لا يأخذون حذرهم، فيأمنون – بسطاء –، عقلاء، خوفاً من الله لا يمكرون – فالسيئة تمحو مائة حسنة – والآدمي على محيط

الكرة ومركزه النية – ومع الهرج والمرج، والتنكيت والتبكيت ينفلت الانضباط، وتتفكك أكثر الحقائق لتتصل بالأقاويل والأباطيل والاخلاط.. وتبرز ثقافة ماروت لتحتل مواقعها في العالم القرية. ابتزاز فتذبذب فتوهان.. وتضيع الحقوق، وتذوب الألفة، ولا يظهر الندم بعد الجروح.. وغفوة تتبعها غفوة ولا صحوة، والمغالطات تفسَّر أنها مرونة!! ها هو يرى رجليَّ في المصرف الصحي، وأمامي يد تقبض السحت، ويسألني كيف: كيف الحال؟!

– (انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً) والصائر أن تتقِّي من يتبعك على هواك، وأن يلقى الحوار إعراضاً، والتقارب مكافحة، وأن تظل تراوغ بالكرة لحرمان الخصم الذي صنعته من الوقت، وطرح الرأي وترك الأمر لولي الأمر غير مستساغ، والاندفاع بلا روية مخدوعاً في تبني مواقف هدَّامة نيابة عن آخرين يقطفون.. ويمدّونهم في الغي!!

الدَّس والوقيعة لمن أتقن عمله، والتنكيل لمن حاول إظهار الجانب الصحي في علاقاته.. وتتوتر بيوت

ومؤسسات من توتّر أربابها // فتعاود الديكة معركتها مجروحة؛ واقع ليس برشيد ما دامت النظرة للانتماء التشتيتي، وليست لسلامة الموقف... فيُكذَّب الصَّدوق، النبتة الطيبة تُشوّه، والشجرة الوافدة تمتص الماء والغذاء، تزيَّن ولا ثمرة منها ولا ظل! لكنها العادة عوّدتهم مهابة الغير واستصغار أنفسهم، حتى صاروا أسرى ألسنتهم. ويُهدر الجهد الصادق، ويطلبون إصلاح الحال من الغير زهواً لا مجتمعاً.. / شطارة في غير محلها / وفيهم أشياء عظيمة ذات قيمة لا يعطونها قدرها. فمَنْ عَثَّرَ ركبُ مَنْ؟! ومن تكالَبَ على من؟ ومن شوَّهَ مَنْ؟ ومن يندُبُ حظَّ مَن؟! يتعجبون من بعضهم، ويشمتون في بعضهم، ويترددون في إضافة حجر إلى البناء، وغيرهم يهدم جداراً لا خجل!! يدفعون ليبتهج غيرهم، وهم يمضغون الوقت.. وتلوك العادة مستقبلهم بين مطاحن المنتفعين بالشقاق.. فَمنْ نالَ مِن مَنْ؟ ومع ذلك لا تستطيع ترك أناس تحبّهم وأرض لثمتَ ترابها، أعطتك ولم تعطها ما تستحق – يخشون الناس أكثر مما يخشون الله – لأن التوكل على الله

المتكفِّل ينقصهم – فيستبيح من لم يستشعر، ويستهين ليؤتمن الخائن / ولأنه لم يعطِ الابتلاء ستره / تراهم يفتنون في كل عام مرات، فيتساقط الضحايا ركاماً ينقَّبُ عنه بعد سنين أثراً للمتفرجين من السيَّاح والمخابرات، ومصدر دخل كالنفط والأسماك.

ويعمّر الجيب لتحطّم النفس.. فالعيب في الناس لا في الدهر والأيام / فهم وما يملكون إن فهموا لا يملكون /. التزلُّف والنكران وجهان لعملة واحدة / والصورة الجميلة لا تميزها نظرة عابرة، بل مَنْ يُمعن فيها النظر.. والحال من مخبره لا من مظهره – بليَّة، وقد فسّرت السماحة بلاهة. والبطانة التي لا يتسع وعيها للجميع تقود إلى غرور فاستبداد بالرأي!! بحسب كمية السم المدسوس في الكلام المنقول.

مبتدأ النار من شرر، ومبتدأ دفن الأحياء، ونبش الأموات كليمات في مؤتمر أو ملتقى أو دار، والنعت يتبع المنعوت لتقويم اللسان، وضبط الكلام، وأما تقويم الحياة – عمارة الأرض – فتتبع الضمير القوة: ونقد الآخرين

والاستماع إليه بالتجريح هو المألوف، أما نقد الذات فهو الغير مألوف..

أهي مراحل، أم تربية ضمائر؟ صراع من طراز يحجب التوافق.. مكايدة فمكابدة، وفرح في الوجه ووجع في القلب لتحترق القضية، وتنصهر الأسرة، وقد فاحت روائح أمية الأحاسيس من ابتداع وتناقل بالمألوف.

– (اغنم زمانك) لإقرار واقع بالذرائع تجاوز المقبول، وأثار السخط حتى سقطت طاقية الرأس، ودمعت العينان من إطالة النظر إلى قرص الشمس، لا من لَسْعِ الرَّمضاء.. فأنَّتْ أوتار بالأنغام من تقاطع الأرحام، وتبيَّن أن قاعدة المثلث زلزلتها زاوية الرأس الثقيلة على الأساس من تناسي قوة عزيز مقتدر.

والأمر الآتي تربية جنسية للأطفال في المناهج مع البث لمواكبة العولمة، بل لإثارة الغرائز!!.

– عمَّ التكتل القلق، والغش في الكلام والعمل، والتباهي بالذل.. إحباط، فاستسلام أو تمرّد.. وتُطفأ الشموع شمعة بعد شمعة – وكل بيت صار يرى همَّهُ ولا يرى أنه سبب في همٍّ

بيتٍ آخر.. وتهدَّم اللبنة الأساسية للمجتمع (الأسرة)، وتخرّب بيوت من دخلها وإنفاقها وأوقاتها.

– شكَّل الدور مشاهد ومتلقّي، ومستمتع بحوادث التاريخ، وإشباع رغبات لم تكن مثارة سلفاً، مع تسفيه العقل، وكسر همَّة الفعل هنا، أما عندهم فأهلاً بالمخ. اتسع العلم نعم، لكن رافقه ضيق في استثمار المعرفة، والمجتمعات تخلق الواقع، والولي يدري ولا يدري أنه يدري.. إلى أن تستغني الناس عن البساطة والحلم والثقة لترتعد الأرض من الناس.. والناس فيهم سجايا حميدة كثيرة تحتاج إلى تأصيل، كما تحتاج الأسرة إلى تهذيب وكيف تواجه القضايا الحقيقية.. وأن يترك الآباء للأبناء إرثاً صالحاً، وأن ينشئ للنشئ معالم الطرق لا كلها، وأن يحترم الأبناء كفاح الآباء، وصبر الأمهات. والأمة يحييها دينها ويحميها العدل فيهم.

والإنسان لا يرضى بالظلم عليه، ويظلِم! فالحاجة لمصلحين لا موظفين.. والرسل يمشون في الأسواق.. يبيعون ويشترون، ويبشّرون وينذرون، يثبّتون ما ألفه الناس من

صالح الأقوال والأفعال.. وينكرون ما يضر الناس في دنياهم وأخراهم. فهل الطفل يرى الرَّحم وظلمته أوسع من الأرض وشمسها فيخرج إليها. ليصرخ؟! (اللهُ أعلم وأحكم).

يناير ٢٠٠٥م

الأشباه[1]

في الشارع الداخلي المسفلت للمدينة، أقود سيارتي بتمهل في اتجاهها الصحيح بعد أن هدأت أعصابي من ثرثرة كلامية في ذلك المقهى، تطورت إلى لغط، وخرجت بالمتلاغطين عن محور نقاشهم، يموجون في بعضهم وكل يصر على موقفه حتى انفضت الحلقة كالسهام المتناثرة عشوائياً – بلا شفافية حيث شدتها أنغام أوتار التزمت في غياب الإرادة الحرة – وتبسمت.. حيث أدركت منطق الحكمة في مثل هذه المناقشات، ولكن بعد فوات الأوان كان انسحابي وحيداً.. ولم تدم الابتسامة حتى أكمل تبصري فقد ارتكز بصري من الزجاج الأمامي على رجل يسير ويتمايل مواجهاً سيارتي.

حاولتُ الانحراف بالسيارة عنه، لكن حركته لا تشجعني على تجاوزه. خفت، وأوقفتُ السيارة، فتهاوى على

---

١ - صحيفة شباب، العدد [٢٢٤].

مقدمتها ثم ضرب بيديه ورأسه غطاء المحرك.. لا دوام لأزمة.

فتحتُ الباب ونزلتُ مشفقاً وأمسكت كتفيه وسحبته نحوي حتى اعتدلت قامته، ثم أدرته اتجاهي فتناهت إلى سمعي آهاته من غير أن يلامس صدري صدره، ورنت في أذني كلماته:

– أنا نصف حمار، تريد حماراً كاملاً! هي قالت لي ذلك بعد أن توعدتني ورفستني في مؤخرتي. من أين آتيها بالحمار الكامل، السرعة ؟! ربما أنت المنشود. دعني أتفحصك.. فعضيت له ثلاثة أصابع، ودفعته إلى داخل السيارة دون أن يبدي مقاومة، وأعرف جنونه من صوابه ما دامت نياط القلب لم تتقطع بعد.. وقلت: هذه هي المرة الأولى؟

– بل المرة المائة.

وحلا لي الحديث.. ورفعتُ يدي.. ولما لامست سبابتي شفتي السفلى قلت: كيف كانت الأولى؟!

– كثير يسأل عن البداية، وهي حكاية – انبهرتْ فانهارت، وبعدها تمحمرت حتى تعودت على الرفس منها –

– الصفات بالوراثة، والحماقة بالوراثة! والغيرة من الناجحين وتشويه الجمال... ينفذ تآمراً من غير أن يرجع البصر[1].. شهوة مستبدة.

– كيف؟؟ ولم تبدُ البغضاء من فيه.. ولا يعلم ما يخفي صدري..

– هل عصيتَ والديك من قبل؟!

– لا أذكر.

– لأنهما والداك فلا تذكر! على كل حال.. والأطفال؟ وداست رجلي رجله فكتم أنَّتهُ وفتح فاه.

– تفرحهم الهدايا والريالات، وقد اختلس رجله من تحت رجلي، وأطلقت أسنانه شفته وتنفس.

– فقلتُ في نفسي: لأجل عين تُكرَم مدينة، ولأجل بئر تُدفن أمة.. وضربتْ يدي كتفه، فمال نحوي.. وسألته: وأنت؟!

---

١ – يرجع البصر: يعيد النظر مرة أخرى.

– أنا – قلت: أنا نصف حمار.. أنهق فلا يترجم نهيقي أحد..!

عضعضتُ راحة يدي من الغيظ حتى احتقن الدم موضع العضة، فهالني الحصار.. وقلتُ: تمنيتُ أن أدوسك تحت العجلات، لتلقى حتفك، ولكنك محسوب من البشر.. ماذا أفعل وأمثالك يصورون كل الناس مشوهين.

– وأمثالك يُرمَدون على النار – افعلها، وسوف تدفع ثمن ذنب غيرك، وستصرخ صراخاً يفتت الأكباد..

– هذا صحيح طالما هناك سماعون للكذب.. فما عادت الأكباد تتفتت! وتراجعت.

– ما دام الأمر كذلك فدعني أمارس الحد الأدنى.. فالبطن خاوية، وتناول علبة عصير تركتها لوقت الحاجة. فتحها بسرعة، وتجرعها بسرعة، وأنا أشتهيها لنفسي – قدَّرتُ وقدَّرَ الله – فقدَّرتُها مِنْ ثمن المتعة.. بعدها انحنى وحَكَّ رجله وقال: الملعونة (عضَّتني).

– من هي؟

– البعوضة. وفي خفة مد يده نحو باب السيارة، فوضعتُ يدي فوقها، وضغت عليها ثم شددتها، وأحاطت ذراعي كتفيه، وجذبته لأملأ فضول عيني من عينيه.. وتألمت.. ليس من عضته كتفي وإنما من استغلاله فرصة الملامسة. ووكزته بإصبعي فانحرف وحدق في عيني مبهوراً.

– هانت تحسن الكِفات[1]– متى ترفرف بجناحيك وتصرخ.. هذا قد يرضي، الوقت يمضي هيا بنا نمضي، أنا لا أملك إرادة العودة بمفردي.

– تساءلت في خبث، وهو يتقزم أمام ناظري: إلى أين؟

– لا تثير حنقي.

– وهل أنت ممن يحنقون؟!

– العديد لا يترددون.. وقد تخلوا عن العزة، والنخوة.. معظمها يضمحل، والتمسك بها صار تطرفاً، هيا عجِّل بنا لترفس الحمار الذي لم يشفها، وتشفي لي غليلي.. مشهد مثير.. حمار يرفس حماراً، وأنا أعض حماره وأنهق.

---

١ – الكِفات: الضم للشيء.

هذه المرة الأولى التي فيها أفتح باب السيارة، وأدفع آدمياً يتعثر ثم يستقر مستنداً على جدار ويشير نحوي.

– أنا.. لا شيء، طالما فقدت الإحساس.. ماذا بقي؟! لا شيء في العاجلة يستميلني – لن أعود – أسألك أن لا تكون من المحرفين للكلام، ولا تكن من المرجفين.

لم يكن المشهد خداعاً كما بدأ.. ولكنه صار يقلب كفيه على ما أنفق من وقت.. ويتهاوى بعد أن ضل سعيه، وينفذ مخزون بطارية السيارة من كهرباء، فتعم الظلمة.. وتهب الريح وتحرك السحب فيسقط نور القمر.. وتراءى ما وقع عليه بصري.. أتان تطأطئ رأسها وتحرك أذنيها ودموع على خديها.. لقد وبق[1]. وجب العزاء..

---

١ - وبق: هلك.

حين حدّثتني جدّتي

بعد انتظار طويل قد يقتل الرغبة والرهبة حيناً، وقد يمدّ النفس طويلاً حيناً آخر، يقطع ويؤكد الثقة في النفس، ويمنحها الاطمئنان إلى المخزون في الذاكرة... انتشر الطلاب فرادى ومثنى وجماعات داخل وخارج ساحة المدرسة في حركة دائبة، سواء الواقف منهم أو الجالس. الجميع صاروا منشغلين يطالعون الكراريس التي بين أيديهم، وقد ارتفع نبض مجاميع منهم وانخفض نبض آخرين. وشتان بين القلق واللامبالاة في مثل هذه البداية التي قد تصبح ذكرى في عالم النسيان. لم تحن الساعة المنتظرة طالما وأن المراقبين للامتحان لم يتحركوا من مكتبهم، وما زال يخيّم على القاعات شيء من الرهبة الممزوجة بالجمود بعد أن استبعدت الجداول والرسومات، وحلَّ محلها الإرشادات والتعليمات. أشياء مقرفة، ولكنها سمة اجتماعية متطورة لا يستغني عنها الإنسان في تنظيم حياته إذا أراد لها أن تستقيم.

تعمَّد تلميذ متباهياً أن يسأل زميلاً له عمَّا أعدّه لهذا اليوم. فقابل سؤاله بامتعاظة ساخرة وقد شطا.. ولا شيء جديد يذكر سوى ما جرت عليه العادة وما كان يعده بالأمس قد أعدَّه لامتحان اليوم.

في أحد الأركان قبع تلميذ منزوياً، شاحب الوجه منزلاً خده على يده، متفكراً حزيناً. اقترب منه تلميذ يحمل نفس الشعور، وأمسك بيده فأجهش بالبكاء وهو لا يدري كيف له أن يضع مبرراً أو تفسيراً لما يجري.. لماذا نذاكر؟ ولماذا نحاول أن نفهم ونحفظ ونهتم؟ بل لماذا نجهد أنفسنا والنتيجة دائماً نحن وأمثالنا في المؤخرة؟ هل هي ثمرة اجتهادنا أم أننا مخطئون كالذي يبحث عن نظارته وهي على عينيه.

فجأة هبَّ الطلاب بانزعاج واقفين.. لقد اصطدم طالبان وتشابكا بالأيدي، لمجرد أن حَدَجَ كلاهما الآخر بنظرة حادة أسقطت حين وقوعها كل الحواجز بين الامتثال والعجز والقدرة على التخطي لكل اللوائح المنظمة لسير الامتحان بين المشروع والغير مشروع. وأصبح الجميع منقسمين على

أنفسهم. فئة مهزوزة تقف على خيوط رماديَّة، وفئتان مختلفتان في طريقة اجتياز الامتحان. إحداهما مثالية شديدة التمسك، فعادة لا ينجح الأكثر إخلاصاً أو الأشد صدقاً، وإنما الأكثر كفاءة والأشد براعة والأكثر واقعية. حينها قد وصلت الأصوات والتحرشات والجلبة إلى مسمع المراقبين القابعين في مكتبهم. فانتصب أحدهم مستطلعاً، وحين وقع بصره على التلميذين اللذين رفضا فكَّ الاشتباك محذرين أخوتهم من التدخل، استدعاهما بصوت قوي أجش، فحضرا بين يديه فكان الأول سريع الخُطى، متحمساً، أما الثاني فقد أقبل متباطئاً متثاقلاً كمن بات يعاني من آلام المفاصل وهو غير مكترث ولا آبه لما حوله. سألهما عن سبب الشجار بينهما. سارع الأول يشرح وجهة نظره، مبرراً موقفه معتمداً في ذلك على المنطق في الجدل. فظل الثاني يبتسم وهو يعبث بخصلات من شعره تدلّت على جبينه دون أن يولي أي اهتمام لما هو قائم. فقد كان محضراً للرد والافحام مسبقاً كما لم يحضّر بنفس القدر لاختبار اليوم، فلم يلتفت إلا بعد أن

شرع المراقب في توبيخه وتأنيبه.. ولكنه لم يترك للمراقب أن يستمر ويكمل فقاطعه: بأن عليه أن يستمع ثانياً لوجهة نظره هوَّ الآخر، فكيف يتأتى لقاضٍ أن يقتنع بوجهة نظر، يتحول إلى موقف يدافع عنه بسهولة قبل أن يستمع للآخر. فأراد المراقب أن يسايره ويماليه في الحديث ليقصم لهذا المتشدق ظهره بصوت قوي، أو سوط غليظ بعد أن يستمع إلى ماذا عساه أن يقول... ظاناً أنه سيعيد شيئاً فارغاً كعادة بعض التلاميذ في العبث بالألفاظ دون إدراك واضح لمعانيها، حيث يروونها كما سمعوها، وحين يتمنى التلميذ أيضاً أن يكون نسخة كربونية من شخصيّة ما انبهر بها، تدفعه سن المراهقة لأن يحذو حذوها لمجرد أنه شاهدها أو سمعها تتحدث. ولكنه قد يندهش، وقد يسخر من هذا الحلم حين يكتشف نفسه بعد سنوات المعاناة والنضج – ولكنه لم يفطن حينها إلى طالب اليوم الذي يريد أن يطوي كل المسافات ويتخطَّى الأزمنة، ويجسد مستقبله قبل أن يحلل حاضره. لكن التلميذ قد اشمأز ورفع رأسه بشموخ لاوياً شفتيه ممتعظاً حين أصبحت المسألة

محلولة في نظره، ولا تحتاج لكل هذه الوقفة. وحسماً للموقف وتجاوزاً لكل الشواطئ المنسيَّة قال: نحن لم ندخل القاعة بعد، اختلاف بسيط في وجهات النظر لا غير، كلانا ارتأى الطريقة المناسبة. ولكن حين كانوا يدخلونها ينقسمون إلى فئتين. فئة جدَّت وتحصد ثمار اجتهادها حيث لا وسيط يُذكر، لأن التمازج وإبعاد الكلفة محدود، والحذر موجود. وفئة أخرى تحاول أن تسرق بعض هذه الثمار، طمَّاعة تحب أن تنال أكثر من جواز المرور، وتتمنى للآخرين الإقامة الدائمة على مقعد مريح وثير يتصلبون عليه ليصبح جسراً للعبور، ولكنها تتأسف عندما لا تنال شيئاً وتحبط محاولاتها.

أما اليوم وحين ندخلها ننقسم إلى ثلاث فئات.. فئة مثالية في اجتهادها، وأخرى تتسم بالبراعة، والثالثة المتعاطفة التي تفك الأزمات وتذلل الصعوبات، وإن جدت أحوال عليها، لكنها على أيَّة حال قلوب رقيقة جيَّاشة تفيض بمشاعر إنسانية فتمد يد العون.. لعلها في قرارة نفسها غير راضية

عنها، ولكنها في نفس الوقت تندفع. نحن لا يهمنا، بقدر ما تهمنا اللحظة الراهنة.

في البداية يتعاطف معنا بشيء من الحذر، ومع مرور الوقت نحول تعاطفه إلى ضعف، ونؤوله إلى استسلام. فتمتزج دنيانا بدنياه حتى نصير جميعاً في كينونة عالم واحد، ولكن كلانا يسلك طريقاً متفرقاً.. القرار والخيار، ويصبح الجميع أمام الأمر الواقع، فتصيبهم حالة من الفوضى يعيشون لحظتها في الزمن الممتد، وتصبح الحاجة لمعرفة أسبابها ضرورة ملحَّة لإعادة ترتيب الأفكار، واستخدام الوسيلة بمضمونها الصحيح حتى توصَّل إلى الغاية المنشودة، ولا ننكر أننا نجني ثمار غيرنا حتى نصل إلى المقدمة، وننقلهم تلقائياً إلى المؤخرة بعد أن تتوتر أعصابهم ويطيّروا ما برؤوسهم من معلومات كانت ثابتة قبل ثورة الغضب الكابح. فتضيع بين القهر والضيم الذي أصابهم، فينهاروا.

أحياناً تبذل بعض المحاولات لاستعادة الكرامة، أو للحفاظ على الأمانة التي على الأعناق ليسود شيء ممل

اسمه النظام والانضباط. فنذكر حصاد العمر وشقاء السنين التي مرت علينا حتى يبدو اللين. وسنة بعد سنة كما أخبرونا بتجاربهم حيث جرت العادة، دأبنا كمن سبقونا على ممارستها، واعتبرناها قاعدة لحقيقة أثبتناها.. فنحن لا نغش، ولم نستخدم هذه الكلمة أثناء تأديتنا للامتحان، ولكننا نمارس حقاً مشروعاً في عرفنا. تُرفع الكلفة فنرفع ورقة أو كراسة أو نطالب بكتاب، بل ويوزع بعضكم لبعضنا إجابات جاهزة بجرأة الذات أو بتنفيذ الطلب فيحرجون بعضهم الآخر.. لا يغيّر هذا المسلك شيئاً في سير الامتحان. فهذا رأيي وأنت حر تقبله وتعتنقه، أو ترفضه. نحن ملتزمون بالزمن المحدد في الجدول. أما الوقت الإضافي كما بررتموه بالوقت الضائع وأقنعتم به أنفسكم. فهذا كرم منكم تتفضلون به علينا حتى لا نقول أنكم بخلاء، خرجتم على الأعراف الاجتماعية التي أفرزتها حياة الصحراء وضراوتها، حيث ساعدتمونا على أن نجعل من الغش كما تسمّونه حقاً مشروعاً لنا... فلا بأس ولو لبعد حين أن نقيم زمناً للانتهاء من كل مادة مدًّا وجزراً

ونختار نوعية الكريم السخي والرجل الموضوعي الذي بدونه لا نسوي ولا نساوي. قد يكون هنا بعض التهاون من جانبنا أثناء السنة الدراسية، ولكن الواجب يؤدَّى حتى لو لم نشرح ظروفنا، وهذه نعمة لم ينالها أسلافنا. حقيقة سخيفة أن نصبح مشرعين لأنفسنا حقوقاً نتائجها ضدنا. ولكن حدث هذا حين عوضتمونا حقاً بحق بعد أن تضاءل البحث والتفكير، فلا بأس عندنا من استلام أي مؤسسة نحقق من خلالها ذاتنا، ونقوّض دعائمها.

صدّقني لو قلت لك أن الحقيقة دائماً تكون مرة. على أن تهيبكم على علاقاتكم وخوفكم على مستقبلنا في أن تدقوا جرساً واحداً في محيط آذاننا لنفيق من الوهم... لا لأن تتومونا معكم تنويماً مغناطيسياً نعيش اللحظة ونقف لنتعثَّر.. الطريق أمامنا، ونقنع أنفسنا بالسهل من الوعر دائبين على تحقيق مصالحنا الشخصية التي توضع فوق أي اعتبار.

أو لا تصدقني لو قلت لك: أن ما يجري في القاعة هو الحال على أرض ملعب، وكل فريق يرصد إمكانياته

ابتغاء التفوق على منافسه لدفع الهزيمة التي لها وقعاً مؤثراً على القوى النفسية لا يحتمل.. وربما تدخل الحكم منافساً ليحوّل النتيجة لمجرد أنه أراد... فنحن هنا لا نمارس إلا عمليات سلوكية للتعبير عن الإحساس بالتفوق والإصرار عليه.. سلوك فطرتنا من خلاله نحقق ذاتنا وكياننا كأفراد، فنحن جيل لا يقرأ.. لأننا لم نتعود على ممارستها منذ الصغر فنكتفي بملخص الملخص.

على كل حال.. أنا ثرثرتُ أكثر من اللازم بما يليق أو ما لا يليق، ولكنه شيء في نفسي فلا أطيل عليكم، وأظنكم سمعتم معي رنين الجرس التقليدي لبدء الامتحان في الزمن اللامنتهي فلا تعطلونني فقد أوجزتُ لكم وجهة نظري، وأشكركم عل حسن إنصاتكم.

أما الآن سأترككم مع جدتي حيث حدّثتني ذات مرة وقالت لي: يا فصيح لا تصيح.

المُتَوسِّمُون[1]

نسير أمام وخلف النعش المحمول على الأكتاف، بين مهلِّلٍ وصامت، ومثرثر، وفينا المهرول، والماشي، والمتكئ على عصاه.. ولا خيار فيمن تحمل على كتفك إلا المثوبة.. وخلفنا امرأة يقودها صبي، فقلّبتُ بصري بين المرأة والوجه الذي بجانبي.. فتبسَّم ودنا يحملني[2]:

– شبَّ مفتول العضلات، بقامته الطويلة، ومنكبيه العريضين، وعينيه الواسعتين.. أكحل، ببشرة قمحية، وشعر أسود ناعم مُرجَّل[3]، يَلفّ خاصرته حزام فاخر بحقيبتين – صناعة وطنية للنقود الورقية والمعدنية – يشدّ صاروماً من نوع (بالي)[4]، ويحيط زنده قطعة سميكة من الفضة عليها نقوش يقال لها عضاد، وفي الوسطى خاتم ثقيل من الذهب، ورمّان

---

١ – المتوسّمون: المتفرِّسون. الناظرون. المعتبرون.

٢ – يحملني: يحدثني.

٣ – مُرَجَّل الرأس: مُسرَّح.

٤ – بالي: منطقة في إندونيسيا.

طوَّق به رأسه، وشال تدلّى من كتفيه، أما القدمان فعاريتان من غير نعل. يشرب لبن المنائح، ويفت التمر بزيت السمسم.. يسابق أقرانه في دفع القارب إلى البحر، وبخفة ينطّ وسطه، ويمسك المجدافين.. وهم يرمقونه بالإعجاب والحسد، وهو يصرع الأمواج.. ويعود إلى البر بما اصطاد من سمك مزهوّاً.

كان دخله يفيض عن حاجته، فينفق على جلسائه ونزواته بسخاء.. وفي الشروحات يجالد في ضرب الكفين حتى تدمى، ويضحك حتى ترى لَهَوَاتِهِ[1].. وذلك من عِبيَّة الجاهلية[2] في نفسه.

وجاءته أخته العمياء عشاءً تبكي:

– دخْلُ زوجي لا يكفي قوت عيالي.

– وأنا لا أوزّع مالي.

---

١ – لهواته: أقصى حلقه.

٢ – عِبية الجاهلية: كِبرها.

وبعد أن هزأ منها نهرها، وولّاها ظهره العريض، فتراجعت مرتاعة، وإلى دارها عادت تتجرع مرارة القهر، وهي تدعو له بالهداية... وأخذ البارئ زوجها، وصارت الدنيا عندها دار عمل وصبر حين استدعيَ ابنها الأكبر للواجب الوطني، فبات يفكر في رعاية أمه وأخوته.. وكان أقرب الناس إليهم خاله الذي يحقّ له أن يدخل ويخرج من الدار متى شاء.. وقصدَه:

– أنت بمفردك تعيش، وأنت بمقدورك أن تخالط أمي وأخوتي في دارنا.. ولم يصوِّب عمله حين ردَّ مقاطعاً:

– أمك طامَّة، طامعة في نقودي.

– نحن لا نستجديك نقوداً، أنت أعز من النقود.

واحتقن وجهه بالغضب، وسُدت بصيرته، وانفجر شامتاً:

– تريدني أخدم عمياء، رُح دوّر لأمك على خادم.

– الصِّلة يا خال، وأمي أختك، والعَمى قدر، عمى البصر ولا عمى البصيرة يا خال..

– أخو المفتحين أنا، لا العميان.

دفعه، وصفق الباب حتى ارتجّ، فارتعد الابن، وارتدَّ مخذولاً.

أخذت قوته التي يفاخر بها تضعف، ونشاطه يقل، ودخله يتناقص. ولم تعد صحته تساعده على العمل، فكان عليه أن يقضي يومه بين الدار والمقهى. واختار الله الابن الأكبر فصبرتْ الأم صبراً جميلاً مع أولادها، والخال ومدَّخراته تتناقص.. ويقل زوّاره حين قل عطاؤه، ثم انقطع.

أرسل إليهم، فاكتفوا بملاقاته في الشارع أو المقهى إذا لم يستطيعوا أن يتحاشوه. وتشققت الدار، فخرج منها منهاراً، وكانت وِجْهته صوب أخته، وقالت ما لم تودّ قوله:

– هل سمعتَ أن عمياء ترعى مبصراً؟!

تراجع، ودموعه التي رأتها تتساقط حين شاهد أولاد أخته شباباً يقفون خلف أمهم، ومن ذاكرته.. تنكَّر لهم صغاراً، فهل سيعرفونه كباراً؟ هل فهموا أن الخال والد؟ لا يكفي أن يفهموا بل يجب أن يتربوا.. وفي تربيتهم دور إيجابي للخال يكون.. ورأى فيهم ضخامة جسمه، وهمَّة شبابه في أيام خلت، أما اليوم فالهزال والضعف. وذاق ملوحة دمعة لعقها

وهمس: لا يغيّر.. إن حكت لهم، أمْ لم تحكِ.. فاليوم وليد الأمس. واستدار.. فنادته أخته:

– أنا لا أحمل لك كُرهاً، ولكني سأخسر أفئدة أولادي. هم لا يكرهونك، ولكنهم لا يحبونك، لقاؤنا يوم الموافاة[1]..

وسار لائِذاً ببيت الله الذي لم يألفه، يجلس على عتبته الغربية صباحاً، وعلى الشرقية عصراً يتفيؤ ظلاله.. أما الظهيرة فيلج في المسجد. ففيه المأوى، والحمَّام النظيف، والماء النظيف، والفرش النظيف، والمراوح..

– مباح فيه غسيل الملابس، وغسل الشعر بالشامبو.. والخروج قبيل قيام الصلاة.

تعجَّل الحالَ الانهيارُ، فعاد يحبو، وحلَّ محل الهدهدة، والنغنغة، والدغدغة، تقلبات الألم، وآهات الندم.

وظلَّ جيران المسجد يقدّمون له ما استطاعوا من الأكل والشرب، واللبس، ومن المصلّين من ينقله من لفح الشمس إلى داخل المسجد، ومنهم من ينظف له جسده

---

١ – يوم الموافاة: يوم القيامة.

وملابسه... وصرخ فيهم أن ينقلوه إلى بوابة المدينة الشاهدة على تاريخ، ونشاط عدد كبير من الناس، وتبوأ مقعده يجأر[1]، وصار مشهداً يومياً للعاطفين والمتهكمين يتلقونه بألسنتهم...

يقلّ الصبر، ويملّه الباعة، ويتجاهل نداءه المتعطِّلون والعاطلون في المقاهي القريبة، فلا يسعفونه بكوب الشاي إلا بعد أن يبحَّ صوته.. إلى أن صار مركوماً تنبعث منه ومن حوله روائح كريهة وهو ينادي صباح مساء: يا شباب نصيحتي لكم أن تتزوجوا، الله هو الغني، القوة في الأسرة، فلا يلهكُمُ الأمل. صِلوا أرحامكم ولو بزيارة، كونوا من المتوسمين..

وحضر مَن ليس بتاركٍ من أحد.. وحين عرفتُ أن تلك المرأة خرجت تترحَّم على مصابها، مرَّ بيننا رجل صعد درج المسجد يقول: (أذكروا محاسن موتاكم)، فعرَّجتُ خلفه..

مايو ٢٠٠٤م

---

١ – يجأر: يرفع صوته بالاستغاثة والدعاء.

الأنانية

دخل على أمه مفشياً السلام، منهوك القوى من جراء عمله العضلي المضني الذي يقضي فيه معظم نهاره، كادّاً، والعرق يتصبب غزيراً، والملابس تبتل... جهد مضني من أجل أن يجمع لنفسه مبلغاً من المال يضمن له البقاء.. ويستقر مثل الذين استقروا قبله.

كان حاملاً برسيم البهائم في يده اليمنى وقد قذف به في ركن الحجرة.. بينما امتدت يده اليسرى بالسمك، فمدت يدها وتناولته منه، ودلفت إلى المطبخ، ووضعته في صندوق يحفظون فيه حاجياتهم. ولما رأت أن في النهار بقية عادت إليه وقد افترش الأرض وألقى بخده على زنده، ومد رجليه، وأسدل عمامته البيضاء على نصفه الأعلى حتى غطى كامل رأسه. نظرت إليه وقلبها به حسرة على الأيام التي تمضي من شباب ابنها وهي لا تقدر أن تقدم له شيئاً كافياً يساعده في تحقيق آماله ويسعده.

قدرتها توقفت عند حد معين أمام طموحات الشباب، وأمنيتها التي طالما تمنتها وانتظرت ساعة يقينها تتعثر خطواتها بتعقد الحياة. كانت تود أن ترى ابنها وقد تزوج، وخلفه البنين والبنات وقد زادوا البيت بهجة بقفزهم وصراخهم، بنشاطهم وحيويتهم، بشجارهم وعنادهم، وقد صاروا ينادونها بياجدتي وهم يتعلقون بأسمال ثوبها، ذرفت دمعتين ودلفت إلى داخل المخزن، وعادت تحمل بين يديها صندوقاً صغيراً من الساج صنعته يد ماهرة. كان الصندوق ومحتوياته هم أهم شيء ورثته وابنها عن زوجها. كان بمثابة بنك الادخار والتنمية للأيام الصعبة التي كثيراً ما واجهوها، وقفت أمامه، ثم تربعت جالسة قباله وحطت الصندوق فوق الأرض. أيقظته، فانتبه من غفوته وقام متجهاً صوب الحمام ليغسل يديه، ولكنه توقف وأدار ظهره عندما نادت عليه وطلبت منه الجلوس وهي تبتسم وتخفي إعصار قلبها. نزل على ركبتيه، وأخذ ينظر في عينيها بينما راحت أصابعها تداعب مفتاح الصندوق .. ارتاحت بعض الشيء بانفتاح الصندوق، ولكن

ارتياحها كان مرتبطاً بالخيفة والتوجس. أسقطت أهداب جفنيها متأملة.. ماذا لو سخر منها ومما جمعته... هذا حلالي، لم أقدم تنازلاً، ولم أسلب حقوق الآخرين، ولم أكسب تعاطفهم بإغرائي لهم أو باندفاعهم البهيمي ليصبحوا أدوات تحقق مطالبي ومطالب من يلجأ إليَّ بإشارة بنان أو بسمة شفاه.

هذا شقائي وكدِّي وتعبي.. احتطبتُ، واشتغلت في البيوت غسالة ومربية و(محاضة). وبعت الدجر والشربة، أني أعرف ابني حق المعرفة. سيفرح طبعاً ويبتسم، ويبتهج، وسيداعب النوم جفونه في أول المساء، ويبات مرتاح البال والخاطر، قرير العين هانئ النفس.. هادئ كسكون الليلة في هدأته. رفعت بصرها فألفته ينظر في عينيها مندهشاً، وبصره على ناصيتها مرتكزاً، أطبقت عينيها، ثم نظرت إلى أسفل وأسقطت بصرها على الصندوق وهي تطلب منه أن ينظر إلى ما بداخل الصندوق. رفع رأسه بعد أن وطاه مبتسماً لما رأى.. مبلغاً من المال، وثلاث أساور من ذهب وحزام من

الفضة، كم يساوي كل هذا!؟ وماذا يعني بالنسبة له؟ لم تتركه يستغرق في أفكاره ولكنها تداركت متلعثمة بين الإفصاح والإحجام عن رغبتها التي ودت أن يحققها لها ابنها، فلن يكون أقرب إلى الأم وفهْم ما تعنيه غير ابنها.. صحيح أن مئتي وخمسين ديناراً وثلاث أساور بستين دينار وحزام بثمانين دينار لا يزفون امرأة شابة لتكون زوجة لابنها، وتصبح هي حماتها وخادمتها أنها لا تريد منها أن تقوم حتى بغسيل ثيابها، وستقوم هي بكل شيء من كنس وطبيخ وغسيل ملابس ابنها وزوجته، ولا مانع عندها من تنظيف غرفتهما إذا سمحا لها بذلك. لقد شبعت من الدنيا كما تقول، وبقي لها أن ترى ابنها وهو يتمتع بشبابه وتتعجب هي به. ثلاثمائة وتسعون ديناراً لا تساوي نصف المهر، لكن والحال هذي في من يكمن الحل..؟ ولكنها قالت:

– العمر يمضي يا بني..

– إنه القدر.

– هذا ما قدرت على ادخاره معتقدة أنه سيساعدك على إقامة فرحنا. ومدت يدها التي كادت أن تتصلب وتحركت أصابعها بعد أن سرى الدم في عروقها التي كادت أن تجف، وأشارت بالبنان إلى ما في الصندوق، ثم فردت أصابعها كالكماشة ويدها ترتجف وأسنانها تتراقص، وأفلحت بعد عناء في أن.... تقرب بين أصابعها وتمسك بالحزام تتأمله ودموعها على خديها تنهمر وقد أقرته جزءاً من تجهيز ابنها. مال نحوها وأمسك رأسها بيديه وطبع على ناصيتها قبلة أسقط معها رأسه في حجرها. فتراقصت جفونه، وسالت دموعه ونزلت قطراتها سانحة على خديه، ابتل ثوبها وأحست بالندى فضمته إليها، وشعر بالحب والحنان، وأحس أنه أسعد إنسان، وقد راحت هي الأخرى في نشوة الفرح فلم يسعها مقعدها ولا كامل بيتها، وتهيأ لها أن وزن رأسه قد صار خفيفاً على حجرها، وأحست أنها تطير في الهواء، وأن جسدها قد ملأ الحجرة ونفذت أطرافها خارجة منها، تمنت وحلمت أن تنفذ بكلها.. ولكنها انطلقت بمشاعرها وعبرت عن فرحها وسعادتها التي جسدتها

بدموع الفرح، وزغرودة أطلقتها وأتبعتها بأخرى. فهب جالساً مندهشاً:

– ما هذا يا أماه!؟

– دعني أفرح يا ابني.

– بماذا تفرحين؟ ما الذي حدث؟ على الأقل أخبريني كي أشاركك فرحتك.

مسحت على رأسه بيدها حتى أنزلتها على خده وهي تتفرس في حدقتيه، وتجفف دموع الفرح بأطراف ردائها العتيق:

– اليوم الذي تدخل فيه على زوجتك، سيصبح بالنسبة لي يوماً أعظم من يومي هذا. أحس بوخزة في قلبه تقلصت على أثرها عضلات صدره، فزم على شفتيه، وصار كل ما حوله يلف ويدور وكل الجوامد أمام عينيه قد تحركت مكونة دوائر مخلفة خطوطاً ضوئية تزداد ظلاماً، والسواد يقتم وكاد أن ينهار... لولا أن تمالك نفسه فاعتدل في مكانه، وندت من بين أحشائه تنهدة على أثرها فتح عينيه ورأى الحجرة وأمه وما

بها ساكناً، فقال لها: ما نسميه زواج في هذه الأيام تجارة رابحة أو خاسرة.. المادة طغت.. المرأة تباع في سوق النخاسين وهي تبتسم بألف وخمسمائة دينار، ورشوة يسمونها هدية في القرن العشرين قد لا تساوي مئات من النوق الحمر.. أشياء كثيرة يسمونها بغير أسمائها، الفقير ضعيف حتى في علاقاته يا أمي... أنا لست من أولئك الذين يهتفون ويصفقون لتظهر صورهم مع كل الزعماء وفي كل الأزمان، ثم يملؤون الشوارع بالقمامة: حتى إذا أصابتهم التخمة أطلقوا الدعايات وتبادلوا الافتراءات والضحكات.. مجموعة من الأقنعة تعيش بها مجاميع من الناس وتنال بها غايتها. نظرت إليه ببلادة تامة، وضربت كفاً بكف، ومصمصت شفتيها وقالت: الله الله. كلام المدارس حلو.. اسم الله عليك.. اسم النبي يحرسك.. خطيب ولا خطيب الجمعة. والله، والله إني لم أفهم كلمة واحدة من كلامك ولكني أحسّهُ.

– المهم أن تدركي، أن تشجبي الإهانة التي تلاحق المرأة من المحيطين عند خطبتها.

– ما شأننا والآخرين.

– عيبنا وضعفنا أن كل منا لا يرى إلا نفسه، ولا يتمنى إلا لنفسه، ولا يحب إلا لذاته، ولا يقيم وزناً لظروف مجتمعه، يسلب أخاه ليفاخر ويكابر. القيم، إنسانية الإنسان، الأخلاق محاصرة يا أماه، طوقوا عليها، وضيقوا الخناق. فلفوا حبل المشنقة حول الأحاسيس والمشاعر.

– صدقت يا ولدي.. فقديماً قالوا: نريد أزواج بناتنا يأتون بعشائهم في طاقياتهم والتعب دلائل جهدهم، والشهامة علامات رجولتهم، ولا تجرؤ ألسنتهم إلا بالصدق.

– وحديثاً قالوا يا أمي: نريدهم لصوصاً، أو طيوراً مهاجرة، نبيع لهم غالي، ونشتري منهم رخيص، نقبض ولا ندفع.. نريد المال الذي بين أيديهم ثم ليفعلوا ما يشاءون.. هم اختاروا، ونحن نقرر، تحقيق هدف لهم يعتبر شرط لازم لتحقيق أهدافنا الأخرى.

– وتصبح المسألة مسألة بيع وشراء.

– وبين البائع والشاري يفتح الله.

– غريبة الرجل لا يهم بقدر ما يهمهم كم سيدفع

– المرأة ألعوبة الوسط الذي تعيش فيه.

– لا تضع معوقات كثيرة في طريقك، وسيكون اختيارك موفقاً وستتحابان.

– ليست كل البيوت مبنية على الحب. هناك الوفاء والإخلاص والمشاركة الفعلية بين الزوجين المؤدية إلى المزيد من الاعتراف عملياً بظروف الحياة والتغلب عليها.

صمتت برهة من الزمن استجمعت خلالها أفكارها، وحملقت في سقف الحجرة المكون من جذوع وجريد النخل. ارتكز بصرها على عود بان نديا، فيه بقية خضرة فسبحت، وحمدت الله على أن في ابنها بقية من ندى الشباب وحيويته، وما عليها إلا أن تحسم الموقف وتتدارك الزمن قبل أن يتجاوز الخامسة والثلاثين، ويترهل جسده وتظهر تجاعيد وجهه مؤذنة بحلول شيخوخة تذهب بحياته، فما دام الإنسان يعيش مرة واحدة فعليه إما أن يتزوج امرأة تنجب له أطفالاً، أو يتزوج والحقيقة ويعيش معها في عرس دائم. فقالت له:

زواجك يهمني، وأمره ضروري الحدوث.. فأنت كالآخرين. فقال لها: أعلم أنا أنه ضرورة من ضرورات البقاء، وأنه يعني استمرار الحياة، وهذا إذا احترم الطرفان العقد الذي يربطهما ومضيا على تنفيذه، أما إذا أخل به أحدهما لسبب ما أو دونه، أو جاء نتيجة لصالح وضغوط آخرين يحولونه إلى ورقة مساومة ونزاع طويل، يحول حياتها إلى جحيم لا تدوم معه العشرة، وكل واحد في النهاية يمشي في طريق من غير أن يعرف سبباً لذلك. سكت لحظة، حك رأسه بالإصبع الوسطى، ثم أنزل يده على أنفه وضغط عليه بالإبهام والسبابة ثم أبعدهما، فتنفس وشم نسمة عليلة اتسع لها صدره، وأردف قائلاً: ولكنها تجربة، وسأبدأ تجربتي كالذين جربوا... منهم من نجح ومنهم من فشل، وليس الفشل عيباً، ولكنه يعطي الإنسان ويمنحه فرصة أخرى لأن يقيم نفسه من جديد ليختار. ولكن أكبر المشاكل التي قد تواجه الإنسان في حياته أن يكون اختياره سيئاً فيصب جام غضبه على من هم حواليه، فإن أنا أخطأت الاختيار فستكون تجربة لي لأستأنف

الجهاد من جديد وقد ضاع العمر. أشارت له أنها ستبيع الأغنام وستضيف ثمنهن إلى ما جمعته. وتساءلت عما بحوزته من مال، وأجابها صراحة ألف وخمسمائة دينار على الأقل، ينفق معظمها مفاخرة ومكابرة.

تبالا الرأي وأخيراً قرر الاستدانة لاستكمال المهر ومتطلبات الزواج، فظهرت بشائر الفرح على خديها، واتسعت لها مقلتيها، وندت عن ثغرها ابتسامة خفيفة على أثرها زفرت زفرة أفرغت ما بجوفها من هواء، وما تجمع من تراكمات الماضي على مر السنين الطوال. رفع بصره على سماعه المؤذن لصلاة العصر، ففهمت من نظرته أن وقت الغداء قد ولى وأنها أضاعت الوقت في حديث يحتاج إلى شهور للاستعداد والتهيئة لذلك اليوم المنتظر الذي ترقبه بفارغ الصبر، ولكنها اختزلت الزمن، وأعدت جلستها هذي مكسباً عوضها عما افتقدته من قبول لرأيها في ما مضى، فها هو اليوم يوافقها الرأي، وأحست أنهما لن يختلفا، وتمنت هذا الاتفاق لابنها وشريكة حياته التي لا يعرفها ولا يعرف عن

حياة أسرتها شيئاً. أحنت رأسها خجلاً واعتذاراً ودخلت المطبخ تعد الغداء لاثنين. عاود ابنها النوم وأمضى ساعة ونصف الساعة بحسابه ملآى بالكآبة والحزن أثارت في نفسه التوجس والخوف من مجهول.

أسبوع، وتمت الموافقة والرضى، وأعلنت الخطوبة على فتاة من قرية مجاورة، وبدأ أقارب العريسين في الإعداد والتجهيز ليوم مشهود في تاريخ أسرتيهما. وتجمع الأقارب والكل سيكسب اقارب جدد بعد المصاهرة. وكلاهما له من يتبعه ويناصره، وجمعهم يشكلون به قوة ذات تأثير ومفخرة في المجتمع، وبات الجميع كل يغني لليلاه...

أقاموا الفرح، وكانت ليلة دخلته تساوي عشرات الليالي التي دخل فيها غيره على زوجاتهم، هن من اخترن لهم ليرضوا بهن شريكات لحياتهم، وعليهن الرضوخ والاستسلام فيضطر بعضهن إلى الكذب لتحافظ على بيتها، لأنها ربما كانت لا تشعر بالاستقرار في حياتها.

كان يعتقدان العرف والشرع وتقاليد الحياة تجمع بين رجل وامرأة حجرة واحدة، تضمهما ولا أحد سواهما، أما بالنسبة لحجرته فقد احتوت ثلاثة. كل من يزوج يدخل على امرأة واحدة، فما المعنى في أن تكون له اثنتين. ولكنه أدرك أن القيم والمشاعر وكرامة الإنسان قد غادرت، وأن من القاعدة قد شق استثناء، وأنه دخل على امرأتين.. العروسة وأم العروسة.

ألقت العروس جسدها المنهوك فوق السرير وهي بكامل ملابسها، منبطحة على بطنها، عالمة بما سيحدث، غير راضية بما فرض عليها، إنها أمها، وعليها أن تجلها وتقدرها حق قدرها إلا في مصيرها. فما دامت قد رضيت به زوجاً فما على الجميع إلا أن يخلوا السبيل ويزيحوا عقباتهم من الطريق لتخطو نحو حياتها الجديدة.. ولكن هيهات... بذل الزوج جهده في خلع ملابس الفرح، ولكن حياءه وكبرياءه قد منعاه، فمضى سيف الزمن يقطع في أوصال الليل، والساعة تلي الساعة، وصرخت الديكة وهو بين السرير

والمشجب متردداً، وتلاها المؤذن يؤذن لحلول الفجر يحث الراقدين والساهرين لصلاة الصبح معلناً بداية يوم جديد. غالبه النعاس فنام بملابسه، وقد باتت أمها تحرسها وتحول بينه وبين الاقتراب من ابنتها التي تتلهف لضمه بجسدٍ شهي ظمآن، لا من مستسلمة حين باعدت ما بين فخذيها تطلب المضاجعة وتزحف لها وهي تنزف... ألماً، ونشوة وأمل. ولما لاحت تباشير الصباح، وأرسلت الشمس أشعتها نهضت الأم لصلاة الصبح، وهي تدعو الله أن لا يجمع بين قلبيهما.

نادته أمه، فلبى النداء، ونزل إليها، واشارت له أن يحمد الله على أن يصبّح على حماته في بيته حيث رافقت ابنتها، وجعلوا من وضعهم استثناء على غير العادة المألوفة لدى الناس من البشر. كان جوابه ابتسامة ندت عنه بعفوية. بانت على وجهه واختفت لمجرد أنه ولى أمهُ ظهره راجعاً حيث سيقضي نهار اليوم بعيداً عن عروسته، فكلاً له مشاغله التي تشغله في مثل هذا اليوم. استوقفته مستدركة: نسيت أهم شيء.. هاه.. أخبرني، كيف رأيت؟ دليلك؟ حذار أن تفجعني

بتمزيق المخدة. أرحني وأرح أعصابك، طمئني يا ولدي. أجابها ببرود وهو يحك ظهره بيد، ويقضم أظافر يده الأخرى بفمه: الدليل هل هو مهم عندكِ للغاية! الليلة الدليل، دعواتك.

الساعة السابعة من الليلة الثانية، والأم معتكفة في غرفة ابنتها وقد تناست صلاة المغرب، ولا مانع عندها من تمرير صلاة العشاء في هذا الجو المشحون بالتوتر. كان الباب مغلقاً. فدقه مرتين فانفتح له. تنهد مرتاحاً، وسرعان ما أزاغت عيناه حينما وقعت على عيني خالته. أنزل بصره وسلّم، ثم حياها تحية المساء. وحادثها بتحفظ، ثم سألها عن زوجته، فغمغمت وضغطت على أسنانها تردد: في الحمام. مضت ساعة من الزمن وكادت أن تفلت أعصاب كلاً منهما لولا أن العروسة أقبلت، ونقلت بصرها بين أمها وزوجها. ابتسمت له دون أن تنبس بكلمة واحدة وتمددت على السرير. فاستلقى جنبها وزحف إليها تاركاً مسافة محدودة بين جسديهما، وكلمها بلطف ولين، فبادلته أطراف الحديث متغلبة على شيطان أمها الذي ينازع ضميرها ويحاول حرمانها من

السعادة. هل بمقدورها أن تهمل زوجها.. ومن يضمن لها حياتها إن فعلت. الوظيفة وحدها المضمونة. وبإمكان المرء أن يهمل عملها ويشغل وقتها بأشياء أخرى.

ودت لو أنها ترمي بجسدها على جسده، وتضع خدها على زنده، وأنفها فوق قلبه، ويشبك أصابع يده في شعرها ما بين أذنيها، وتمسح بيديها على ظهره ما بين خاصرته ورقبته. وأومأت إليه أن يمد يديه، ويفتح صدره مرحّباً، وقلبه مسكناً وأمناً لتشعر بالطمأنينة وهدوء البال وراحته. حاول أن يتجرأ ويمس يدها الممدودة، وقبل أن يشرع نظر إلى خالته. فألفى وجهها غاضباً متجهماً من ابنتها التي خالفت أمرها وفتحت له فمها وكلمته. ابتسم ومد يده ناحية رأسها ليتحسس خصلات من شعرها، وقبل أن ينزلها على رأسها منعه الحياء، فأعادها ساخطاً شامتاً من وضعهم المزدرئ، وقد أنفق كل ما بجعبته من أساليب المحاولة والتصرف، واختلط عليه الأمر إلى من يلجأ.. إلى حماته ويطلب منها مغادرة حجرته، ولكن بأي طريقة، أومأ إلى زوجته لتنبه أمها إلى تصرفها المشين، فلا

هذا ولا ذاك، ما دام لا تمنح له فرصة الانفراد بزوجته، لم ينم الثلاثة.. الأم تراقب، والزوجة شاخصة في وجه زوجها، وهو يبادلها نفس النظرات فكلما أحسا أن المسافة تضيق بينهما، وبدأ كل منهما يذيب نفسه في الآخر، يحسان بيدين قويتين تشدانهما بعيدين عن بعضهما كقطبي مغناطيس متشابهين، والشر يتطاير من عينيها، وبات الثلاثة ساهرين سجين، وقاض، وجلاد.

مضى أسبوع على هذا المنوال، ولم يستمتعا بساعة واحدة منفردين، وأخيراً أحس بأن الوضع قد تغير عندما استلم بطاقة دعوة لحضور حفلات زواج قريب لزوجته. ولكن عليه أن يرحل بزوجته دون أمه بقرار اتخذته حماته التي سترافقهما، وتم الرحيل. وفي القرية بذل محاولاته في سبيل أن يخلو بزوجته كي يعرف معنى لهذا اللغز الذي استعصى عليه حله. ولكن كلما فك خيطاً تشابك خيطان، ولما مضت أيام العرس الثلاثة، أخبرته حماته أنها ستبقى هنا، وكفاية عليها أسبوعاً قضته معهما، كانت فرحته عظيمة بتلقيه هذا

التصريح من أقوى وأعتى جهة، فجعل من أوراق الشجر صحف اليوم، ونشر تصريحها بالخط العريض على الصفحة الأولى دون تعليق منه عليه. ولكن أي فرحة بلغت الكمال!؟ لقد سقط الندى على أوراق الشجر وأمحى له ما أعلنه حين ركب السيارة وزوجته، ودلفت معها أختها البالغة ستة عشر ربيعاً، وتحتل لها مقعداً بينهما بعد أن أزاحته بمرفقها بعيداً عن زوجته. كاد أن يغشى عليه، ولكن درجة تحمله واصطباره كانتا أقوى، لقد وطن النفس وروضها على تحمل الصدمات لكثرة ما لاقى وهو لا يزال يرسم معالم الطريق.. ويحرق أطناناً من الصبر ليصل، محطماً بذلك اعتقاد البعض بأن الوقت هو أرخص الأشياء.

وقبل أن يدخلا الحجرة الخاصة سبقتهما أختها، فعقدت الدهشة لسانه، وتوقف عند الباب فاغراً فاه، وهو يشاهدها تجلس بجوار السرير، وتلم أطراف ثوبها بين ساقيها، أسعفته بديهته للتو.. وهو لا يدري ما يقوله لزوجته:

– ماذا ترين لو نمنا ليلتنا على السطح؟ على الأقل سنهرب من هذا الواقع، أجابته في خجل ممزوج بدلال وإقبال، وهي تضع راحة يدها على رقبتها، ثم تغطي بها نصف وجهها: البيت بيتك وأنا وراءك، أتبعك ولا أقودك.

أوليا لحجرة النوم ظهريهما، وبدءا يتجهان صوب السطح، ولكن أختها نهضت مسرعة، ولم تتركها تتحرك خطوات ثلاث حتى شدتها من قفاها وأوقفتها، ثم أدارت لها وجهها، ووضعت يدها على خدها، وواجهتها بوجه عابس كالح قد انسلخ عنه الحياء.

فزمت لها خديها وشدتهما بأصابعها وقرصتها حتى أنَّتْ، ثم جرتها من أذنها إلى داخل الحجرة. جلس بعيداً عنهما على مقعد سَحبه إلى جانب دولاب الملابس مستسلماً محطماً، كلاهما عرف أن الهزيمة واقعه، وأن إرادتهما ليس بأيديهما، فلا خيار. فهناك الخيانة النكراء التي تسربت إلى حياتهما، والخدعة الملونة بأبهى ألوان الغش واللؤم، رغم أنف كل منهما، جريمة واقعة مستسلبه كافة الحقوق المشروعة

وهما يتفرجان، ولا هناك من يردع أو يصمد، ولا يوجد من يحمي أو يعقل، وأصبحت الأحكام على الأمور بظواهرها، ويظهر الزيف ويعلا، وتخفي الحقيقة، وتتخبط الضحايا في دمائها، ويبقى المجرم حراً طليقاً، والضحية مكبلاً بقيود الهزيمة التي حطمت النفس، أشياء نحطمها وتحطمنا، ويبقى الإنسان هو الخاسر، لو أنها وضعت شروطها لرضيا بها مهما كانت قاسية على أن تبتعد عن طريقهما، من يسمع، من يجيب، سؤال مبهم يطرحانه فيتردد صدى صوتيهما، أيام أربعة مضت وهم على هذا الحال، وفي اليوم الخامس وصلت أمها وطلبت بعجرفة آمرةً ابنتها لزيارتهم في القرية يومين مدعية أنه قد أوحش والدها الفراق، فهو يريد أن يطمئن على ابنته لا بمجيئه إلى بيتها لتعتز به أمام أهل زوجها. ولكن بذهابها هي إلى هناك لتتلقى الدرس الأخير رغم أن رغبتها في التعليم قد انعدمت.

سمح بذلك على مضض، وهو يعلم أنه لا يملك حق الموافقة أو الرفض، واعتبر ذلك تلطيفاً منه للجو واستمالة

لخالته علها ترضى عنه، ويرق له قلبها، فلربما كانت فيه بقية من رحمة... ولكنهن ذهبنَ.. ذهبن وتركنه وأمه، التي كلما سألته عن الدليل اعتصر قلبه، وأخفى ألمه بابتسامة يداري بها سؤالها ويحد من قلقها وتوجسها، مخدراً إياها بكلمات معطرة ترتاح لوقعها في أذنيها، وتهدأ بتأثيرها على إحساسها، وتزداد ثقتها بزوجة ابنها التي تستحي أن تأكل معها، وتعظم في عينيها معتقدة أنها أحسنت من اختارت شريكة لحياة ولدها وفلذة كبدها.

مضت اليومان اللذان حددتهما أمها، وأحس أنه بحاجة إلى من يملأ فراغه، رحل إلى القرية لإحضار زوجته، واستقبل استقبالاً يليق بمقامه المفقود من قبل خالته، وهو يعجب لهذا التحول السريع دونما سبب. ولكنه على أية حال لم يأت بأي جديد طيلة الأيام الماضية. بادل الحاضرين أطراف الحديث مجاملة حين أحضروا الشاي والقهوة معاً. لم يستنكر غياب زوجته، وعدم وجودها بين الحاضرين، ولكنه

تساءل بحذر شديد عنها، وأتاه الجواب مصاغاً بخروجها، وأنَّهم ينتظرون عودتها من زيارة أقارب لهم.

لماذا لا يدعونه لزيارة أولئك الأقارب؟ على الأقل سيتعرف على أناس لم يعرفهم من قبل، وسيفخر بأن يكون لزوجته أقارب كثيرون. ولكنه طرد هذه الفكرة معتقداً أن في كثرتهم قلة بركتهم. لقد حجبوها عنه ومنعوها من أن تجلس في مجلسه حتى يشبعوه إذلالاً، ويحطمون ما تبقى فيه من حلم الشباب. ليس هو بأول كسير للقلب، ولا بآخر محطم النفس.. فحين شعر عنترة بالهزيمة ذبح النوق الحمر للوحوش والطيور، رغم أنه لم ينل من عبلة وطراً، هذه الطريقة التي دارى عنترة بها خيبته فيمن هم حواليه.

بات ليلة مع عمه، الذي لم يكلف نفسه عناء التدخل، وزحزح نفسه مبتعداً، وكيف له أن يتدخل وكلمته لا تتجاوز حنجرته، كل شيء يتحرك بداخله قد أطبقت عليه من زمان، ولم تترك له شيئاً سوى (البوري والرشبة) والاستماع والقبول، أراد ذات مرة أن يسترجع ولو بعضاً من كبريائه، أن يثبت

وجوده كرجل بيت، ولكنها أخرسته قبل أن يكمل وذكرته بعجزه، وإضاعته لشبابه في اللهو والعبث، فلم يستطع أن يفرض تأثيراته على صانعة القرار. وفي الصباح ومع شروق الشمس أيقظته خالته لصلاة الصبح، التي تذكرتها اليوم، وقد فاتتها صلوات كثيرة لم تؤدها في حينها، وأخبرته أن يبدأ صلاته هنا ويكملها عند أمه، وأن زوجته لا تريده، وأنها ترفض معاشرته، وعليه أن يغادر ما دام لا يسمح لها بالوقت الكافي للاستجمام ورؤية ذويها، ولا يقدم الهدايا لخالته، ولا يريد أن يطرد العفريت الذي خوَّف ابنتها في بيته. ومع ذلك لا مانع عندها إطلاقاً في أن يبقى مع ابنتها هنا عندها، أما الذهاب إلى بيته فأمره بعيد الوقوع.

لم تخلع الصدمة من همته شيئاً، وظل رابط الجأش يردد بثبات: إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان. أحمد الله على أنكم قد جاوزتم بي الخطوط الرمادية.

قالت وقد لوت عنقها، ونظرت بعيداً، ملوحة بيدها: عليك أن تذهب وستكون عند القاضي لتقول كلمتها أمامك.

الزواج قسمة ونصيب وبنتي لا نصيب لك فيها، لقد أصبحت اليوم امرأة بعد أن فتحنا وجهها وستتحمل تدبير شئون بيتي، وأتفرغ أنا للواجب.

حاولت زوجته أن تتحرك، أن تتكلم، أن تعبر عن رأيها في زوجها، أن تتخطى الحاجز الذي يفصلهما. ولكن نظرة أمها جمدت الدم في أوصالها، فأجهشت بالبكاء، وهي تلقي باللائمة على والدها الذي لم ينالوا حظاً من تربيته.

عاد إلى أمه فوجدها جالسة فوق صندوق الساج، فرمى برأسه على حجرها باكياً. ففهمت كل شيء. ولم تستسلم، وراحت تقول: إن الأيام هي خير مؤدب للإنسان، فالأحوال تسير في تطورها إلى الأفضل، وأن اليوم الذي يتخذن فيه الخيار والقرار بأنفسهن قريب، وإن لم نعشه فسيعيشه أبناؤنا.

رفع رأسه ومسح دموعه وابتسم لها وهو يمسك خديها براحتيه!

– وسنتذكر يوماً أنه كان لنا لقاء.

– نعم، حقاً ستلتقيان.

– وسيحدث ذلك عندما نفيق، وتصح الأبدان والأذهان من ذلك القلق النفسي، والحزن الداخلي العنيف، وليتكِ تدرين إلى ماذا سيفضي تأملي العميق في الحياة وشئونها.

– أراك قبلتَ بالهزيمة.

– كلا..

– وكيف ستدفعها عنك؟

– بالوعي.

– وهل عندك بديلاً للزواج؟

– ألف كلا.. وكلا.

مايو ١٩٨٧م

شيطان النَّفس[1]

مـع طلـوع الشـفق انقطـع التيـار الكهربـائي عـن ذلـك الشارع الممتد بينما كنت اجتازه بالسيارة مسرعا – تاكسي–.

هكـذا وصـلت ذبـذبات الصـوت إلـى أذنـي، وداخلـه تناهت الكلمـة، وتكونـت برقتهـا وعذوبتهـا، ومـددت عنقـي مـن البـاب، ليطـل رأسـي إلـى الخلـف .. دسـت علـى الفرامـل فامتزجت الأصوات من حولي.

أدرت محـرك السـيارة، وتحركـت إلـى الـوراء، توقفـت ... وقبـل أن أمد يدي إلى الباب لمعالجته، امتدت أنامل رقيقة مستطيلة الأظافر، أخذت تداعب مفتاح الباب بينما ظل الناسك والعابد الولهان في تأمله طالباً الرأفة واللطف.

انفـتح البـاب وقـدمت رجلهـا اليمنـى، اتبعتهـا بمـؤخرة حسمها ولما استوت على المقصد بقربي بلغت قمة الرفعة في الذوق. حين تركت لي مهمة إغلاق الباب. نظرت إليها نظرة

---

١ - مجلة آفاق، العدد الأول، مارس ١٩٨٢م.

أعجاب وثقة .. ابتسمت لي .. هممت بالكلام .. فتمتمت.. قالت: مساء الخير..

سلك كهربائي عار هزَّني، وأعاد إليّ حواسي، حاولت أن أقول شيئاً أن اتكلم أن أضحك .. أبكي .. أطرب، أرقص، ولكن أسناني قد اصطكت وعلت وجهي حمرة .

رمقتني بنظرة ساخرة متفحصة، والابتسامة المصطنعة لا تفارق ثغرها: – هل نفذ البنزين؟ .. وفي صمت رهيب دست على البنزين وتحركت السيارة بهدوء، وقد خيل إليّ أنني في أول ليلة من ليالي شهر العسل .. الأحلام تداعبني، ودلالها يثيرني، والنفس تتمنى قضاء ليلة من ليالي الأنس والراح، وفاجأتني بصوت قوى ذعرت له فهو أبعد من أن يكون صادراً من حنجرتها، أن أنتبه.!

ومددت بصرى إلى الأمام في شيء من الغرابة والدهشة! وعلى بعد مترين شاهدت دجاجة مطحونة .. نزلت من السيارة فإذا بالاطار الأمامي ملطخ بالدم .. وسألت نفسي: هل مرت سيارة أثناء وقوفي .. ولم أتخط المترين

بعد؟. وأيقنت أنه حادث وقع قبل لحظات وليس بحادث اللحظة . أخرجت منشفة مبلولة بالماء ومسحت الاطار وركبت، وبسرعة انطلقت..

طردت من رأسي الدجاجة ومقتلها، الأمر سواء عندي لا فرق بين الدجاجة وغيرها، لقد أصبح مثل هذا المنظر مألوفاً، الفرصة متاحة أمامي، وأظنها صدفة .. وما دامت اعتبرها صدفة، فهي لن تتكرر، والتفكير مضيعة للوقت ومفسدة للعقل، وحرام أن أترك هذه الفرصة تمر كسوابقها.

لا بد لي أن ألف حبل المشنقة حول عنقها.. وقهقهت في أعماقي ساخراً من قول أمي (الظلم حبله قصير) الرجل الفحل يجب أن ينقض على فريسته دون هوادة.

القيت نظرة فاحصة فيمن حولي، فذبت وجداً.. وتبعثرت جزئيات نفسي، كما تبعثر المطرقة جزئيات قطعة المغناطيس. أخذت نفساً عميقاً – وتأوهت، ابتسمت وقالت: يا لطيف.. استجمعت ما خار من قواي واقتربت من التركيز رويداً رويداً .. وبدأت أعد العدَّة لتركيب مخارج الحروف.

وانطلقت بنغمة ذات وقع تأثيري، لكل عواطفي وأحاسيسي عبر أسلاك ظفيرتها اهتزت وتنهدت .. وتراقص نهداها، فالقيت نظرة فاحصة، من خصرها إلى قمة رأسها فإذا بتورد وجنتيها كما خيل لي فثارت كوامني، وزدت اقتراباً.. وأخذت في الكشف عن طبيعة نفسي ومزاياها، ونسيت.. نسيت أنني رجل ولي زوجة مثلها وربما أطفال. وتجاهلت أن عشرات النساء يركبن معي كل يوم، وأن عيني تقع على هذه دون غيرها.

واشتهيت جسدها لأخفف به لهفتي، وأطفي ناري... اشتهيتها وسأتركها والعار يلاحقها. أما أنا فماذا عساهم أن يقولوا عني .. فليقل من أراد أن يقول ما يقول .. ابتلعت ريقي وشدَّ انتباهي صوتاً قوياً من الخارج: تاكسي .. نظرت، واشحت بوجهي غاضباً: يا له من صوت وحشي .. وصرخت في أعماقي: قليل الأدب والذوق. ليس بي حاجة للرجال الساعة .. تاكسي .. تاكسي .. تاكسي. كلهم يقولون تاكسي

ألا يرون أنني الآن ومن احتواه المقعد معي نركب بساطاً لا سيارة أجرة؟

كان ذلك هو منطقي الذي عبرت به وصممت على البداية.. وهتفت:

– نشاط وحيوية..

– فيمن؟

– الناس من حولنا .. يالغبائي، أتحدث عن الناس وسعادتهم وأنسى ما اعتزمت عليه .. أقول ما لا أفعل وأفعل ما لا أقول، ازدواج في الشخصية؟ تناقض فيما اخططه لنفسي وجاءتني كلمتها: ونحن؟ متنافرين. ليس بيننا ما يستوجب عكس ما قلت.

– هل أثقلت عليك..؟

– مزاج رقيق.

هبط صدري بعد علو، واقتربت قليلاً وهمست من الصعب أن يكون الرجل لامرأة واحدة، وانزلت يدي اليسرى على فخذها تنحنحت رفعت يدي مضطراً وأنا أقول: آسف!

– على ماذا..؟ على أنك رجل لا تستطيع .. وقاطعتها برجاء أبداً أنا بشر وكذلك أنت، والمكان خال . لنبتعد قليلاً عن الناس والشوارع والمنعطفات .. تجاهلت قولي واستلطافي لها وقالت: ولكني، أعتقد أنه من السهل أن تكون المرأة لرجل واحد لا غير .. وابتعدت جهة الباب، واتكأت عليه بكوعها قائلة: الشارع الثاني .. وأدرت عجلة السيارة، فانطلقت بنا نحو الشارع المقصود ومرت فترة صمت قصيرة خالجني فيها شعور بالكبرياء ممزوج بالغرور .. واقتحمت الصمت:

– اقتربي

– لا ..

– إذن لماذا ركبتي معي.

– ككل الناس..

وجاء صوتها حاداً فيه نوع من الغلظة، امتزجت بالتشاؤم، إذن لماذا يركب الناس معي. الأني أقود سيارة أجرة. أنت السائل وأنت المجيب، وليرضخ كلانا لما قلته بنفسك أخيراً.

استشـطت غيظـاً، تغمـره نشـوة الانتقـام، ورغبـة فـي الانتصار، وقلت متحدياً:

– سوف أغير اتجاه السيارة ..

– لا تفعل

اعتدلت في جلستها ومالت بعنقها قليلاً وهي تقول: ماذا لو كانت زوجتك الآن .. في نفس موقفي .. وصرخت فيها: أبداً، هذا لا يمكن.

فقالت باستهزاء:

– وما أدراك..؟

قاطعتها بلهجة المحتج، على ما فلت منها وأردت محاسبتها ونسيت محاسبة نفسي:

– لا تغيِّري مجرى الحديث، أموافقة أنت؟

– على ماذا؟

ترددت قليلاً، وزاد لعابي وقلت متلعثماً:

– على .. على أي شيء يروق لنا نحن الاثنين..

– والشرف .. والضمير؟

– لست بحاجة إليهما الساعة..

– احتشم.

– أنت عنيدة.

كانت صرختي الثانية قوية بينما راحت قدماي تدوسان على البنزين انعطفت بالسيارة وانطلقت مبتعداً بها خارج المدينة..

لم تنبس بكلمة واحدة وتركت لي فرصة الثرثرة:

– أنتن النساء .. هكذا دائماً تمانعن، ثم لا تلبثن أن ترضخن للأمر الواقع .. واسترسلت أطنب في أوصافها وكمال قدها، وقوامها المعتدل وجسمها الممشوق، وشعرها الأشقر، وعينيها العسلاويتين، حتى أنني شبهت وجهها بالبدر ليلة تمامه، لعلي أرى منها ما يسرني ويطربني. ضحكت ضحكة عالية، وسفهت قولي: أتظن أن سهمك قد نقذ، أنظر إلى أصابعك.. وهست: هذا طلاء والطلاء يزول فمهما تتظاهرين فهما قريب ستعرفين كم أن لحمك شهي .. ذئب بشري، قولي ما تشائين.. واستصرخي من شئت، وانتظرت بلهفة الجواب، ولكن اللعينة صدمتني بسكوتها .. يا ترى هل سترضخ، هل

ستستسلم لي بسرعة، وتسلم لي جسدها؟ أم أنها ستقاوم وطردت فكرة المقاومة وأخذت في مداعبتها.

– عالم هذا ... أم جماد؟

لم تنبس بكلمة، حاولت إثارتها، مددت يدي، أبعدتها برفق، فقلت:

– غابة كثيفة .. أم صحراء قاحله؟

أشاحت بوجهها ومالت قليلاً بظهرها نحوي.. فتابعت: السكوت علامة الرضى، ومددت يدي هذه المرة لا إلى ظفيرتها لأتحسسها ولا إلى فخذها لألمسه، ولكنها تداولت وامتدت إلى أبعد من ذلك .. قبضت على نهدها قبضة كورته في يدي نطَّت وصرخت صرخة مدوية: يا كلب!

وأتبعت صرختها بلطمة قوية أصابت عنقي .. زاغ بصري وانفلتت عجلة القيادة من بين يدي.. واقتلعت السيارة لوحة المرور على جانب الطريق .. أحسست بالصدمة وحاولت السيطرة على السيارة ولكن إرادتها كانت أقوى مني.. وقد انزلقت عن الطريق وارتطمت بحافة الجبل.

السرعة كانت وئيدة، لذلك لم تحدث أضرارا بالغة بالسيارة وزممت قبضتي واتجهت نحو المرأة .. فتحت باب السيارة وهرولت أمتاراً مبتعدة وهي تقول: لقد تطاولت كثيراً وتركت لك الفرصة لا كشف لك مكنون نفسك وشرها الحيواني.. وامتلأت رئتاي بالهواء وزفرت زفرة طويلة وقلت متحدياً: سئمت هذه اللعبة يا سيدة لماذا تغيرت بسرعة وقد كنت شبه مستسلمة طول الطريق.

– قالت: التغير سمة الوجود

هجمت عليها صارخاً:

– سأضع حدّاً للعبة .. ولم تجب ولكنها هرولت إلى الاتجاه المعاكس، وشعاع يسلط على وجهي، وسماعي لكلمة تاكسي، وسيارة تمر بجانبي .. فركت عيني، لتألف العتمة، وقلّبت بصري في المكان فلا سيارة ... ولا .. امرأة..

٢٤/ ٨/ ١٩٨١م

المؤلف في سطور :

- أحمد عبدالله محمد بامدحج، من مواليد مدينة الشحر ١٩٥٤م، متزوج وأب لولد وابنتين.
- درس الابتدائية في المدرسة الشرقية (مكارم الأخلاق)، وانتقل إلى المدرسة الوسطى (الإعدادية) في باغ الشحر، ثم التحق بدار المعلمين بالمكلا وتخرَّج منها معلماً عام ٧٣ – ١٩٧٤م، وحالياً متقاعد منذ سبتمبر ٢٠٠٩م.
- **النشاط الأدبي والصحفي:** منذ عام ١٩٧٥م كتب المسرحيَّة والمقالة والقصة القصيرة، عرضت ست **من مسرحياته:** صفحة من الحياة ١٩٧٦م – رحلة الرُّوح ١٩٧٧م – من ملف الحياة ١٩٧٨م – إيمان البسطاء ١٩٧٩م – الصَّمت الرَّهيب ١٩٨٦م – الأمانة ١٩٩٤م.
- له مجموعة من المقالات والقصص القصيرة نشرت في صحيفة الشرارة وشبام ومجلة آفاق وغيرها.

- **طبع له** مجموعة قصصيَّة بعنوان: "بعدما طال الانتظار"، عام ٢٠٠٤م، من إصدارات صندوق التراث والتنمية الثقافية – وزارة الثقافة – صنعاء.
- عضو اتحاد الأدباء والكتاب اليمنيين منذ المؤتمر الفرعي الأول بمحافظة حضرموت المنعقد في يومي ١٣– ١٤ يناير ١٩٧٧م.
- يحضر مؤتمرات فرع اتحاد الأدباء والكتاب م/حضرموت.
- في ١٩٦٥م أنشأ مع آخرين فريق (الشرارة) وشغل مهمة نائب رئيس الفريق الرياضي؛ كما ساهم في سبعينات القرن الماضي وآخرون في إنشاء أول فريق لكرة الطائرة على مستوى الفرق الشعبية بالشحر يتبع فريق الشرارة الرياضي.
- له دور بارز في المسرح المدرسي؛ وله كتابات حول المسرح المدرسي، نشرت في مجلة العلم التي تصدرها تربية الشحر، ١٩٨٣م.

- **من المهام:**

- السكرتير الإداري لفرقة الشحر للمسرح عام ١٩٨٢م.
- ترأس اللجنة النقابية بالمرفق عدَّة مرات، وشغل مهمة سكرتير الدائرة الإعلاميَّة للمجلس العمالي م/الشحر ٨٦ – ١٩٨٨م، غير متفرِّغ.
- شغل مهمة السكرتير الإداري لنادي سمعون الرياضي لدورتين منذ ١٩٩٠م.
- عمل رئيساً وسكرتيراً في منظمة لجان الدفاع الشعبي، الوحدة السكنية، عدَّة مرات.

- **شهادات تقديريَّة:**

- اللجنة التحضيرية لاحتفالات العيد العاشر للاستقلال، المديرية الشرقية (مديرية الشحر)، ١٩٧٨م.
- منظمة الحزب ومكتب الثقافة والإعلام م/ الشحر – المسرح، ١٨ / ٩/ ١٩٨٨م.
- دار المعلمين بالمكلا – المسرح، ٢٩ / ٤/ ١٩٧٦م.

- اتحاد الشباب م/ الشحر ٢٧/ ٢/ ١٩٨٢م بمناسبة الذكرى التاسعة لتأسيس أشيد.
- المخيم الأول للشباب بالجمهورية اليمنية – وزارة الشباب والرياضة – صنعاء من ١٨ – ٢٥/ ٧/ ١٩٩٢م، شهادة عن المشاركة بالإضافة إلى جائزة في المسابقات الأدبية الفردية – مجال القصة.
- مهرجان صنعاء الرابع للقصة والرواية ٢٠٠٨م.
- شهادات تقديرية من التربية والتعليم م/ الشحر، والتدريب والتأهيل وجهاز محو الأميَّة بالمحافظة.
- شهادة تقديرية من فريق الشرارة ٢٠١١م.
- شهادة تقديرية من نادي الشحر الأدبي عن دوره البارز في الحياة الأدبيَّة، بتاريخ: ٢٧ مايو ٢٠٢٢م.

التعريف بنادي الشحر الأدبي

مؤسسة ثقافيَّة أهليَّة تأسَّست في مدينة الشحر بتاريخ ٢٨ مايو ٢٠٢١م، حيث زاولت نشاطها الثقافي منذ تأسيسها، تم خلال الفترة السابقة تنفيذ عدد كبير من الفعاليات الثقافيَّة والأدبيَّة والعلميَّة والتكريم للأعلام الثقافيَّة والعلميَّة والاجتماعيَّة، مما أنتج حياة ثقافيَّة نشطة في المديرية.

شعار النادي:

لِتبقى شُعلةُ الإبداعِ متوهِّجةً ثقافةً وأدباً.

أهداف النادي:

١- العمل على تنمية طاقات المبدعين من الأدباء والكتاب بمديرية الشحر، وتطويرها في جوٍّ من التعاون المشترك والتعاضد الحميد.

٢- استيعاب النُخبة المثقفة من الأدباء والكتاب في إطار كيان أدبي إبداعي ينظم شئونهم الإبداعيَّة ويرعاهم ويهتم بهم.

٣- إحياء التراث الأدبي والفكري والتعريف بأعلام الفكر والثقافة وإبراز الجوانب الإنسانيَّة والوطنيَّة من الأعمال الإبداعيَّة وتعميمها.

٤- تعزيز العلاقات الثقافيَّة مع المؤسسات الثقافيَّة الرسميَّة والأهليَّة داخل الوطن وخارجه.

وسائل تحقيق أهدافنا الثقافيَّة:

يقوم النادي بتطوير منظومة من الوسائل لتحقيق الأهداف التي تأسس من أجل تحقيقها؛ من تلك الوسائل:

١- تنظيم الفعاليات الثقافيَّة من محاضرات وندوات وورش عمل وأمسيات.

٢- دعم المبدعين في نشر كتاباتهم ضمن "سلسلة كتاب نادي الشحر الأدبي" وفي الصحف والمجلات المحليَّة والخارجيَّة، وفي مجلة النادي الثقافيَّة التي ستصدر لاحقاً حسب الخطة المرسومة لذلك.

٣- عمل المسابقات الثقافيَّة في مضمار الكتابة الإبداعيَّة للكُتَّاب الشباب، ومنح الجوائز التقديريَّة والتشجيعيَّة، وتوفير الدعم اللازم للقيام بأبحاث أو دراسات أو أعمال أخرى ثقافيَّة - حسب المستطاع -، تساعد على إنهاض الحركة الأدبيَّة والثقافيَّة، وأيضاً نشر الكتب الثقافيَّة والإبداعية لأعضاء النادي في سلسلة كتاب النادي كما تقدَّم.

نماذج من الفعاليَّات الثقافيَّة:

أقام "نادي الشحر الأدبي" الكثير من الفعاليات الثقافيَّة خلال الأعوام الثلاثة الماضية تنفيذاً لأهدافه المعلنة وخططه الثقافيَّة المُعَدَّة من قِبَلِ الهيئة الإدارية، ومن هذه الفعاليات:

١- فعالية (عرض ومناقشة كتاب "مدرسة مكارم الأخلاق التاريخيَّة")، للأستاذ علي حسين المقدي، في ٢٥ يونيو ٢٠٢١م.

٢-فعالية (الجوانب العلمية والفكرية والاصلاحية عند أكبر أعلام مدينة الشحر في القرن السادس الهجري العلامة سعدالدين بن علي الظفاري الشحري)، للباحث عادل حاج باعكيم، في ١٠ ديسمبر ٢٠٢١م.

٣-فعالية (الشاعر الغنائي القدير محمد عبدالله بابعير - جوانب من حياته وشعره)، في ٢٥ فبراير ٢٠٢٢م.

٤-فعالية (جهود مؤسسات المجتمع المدني في اصلاح التعليم في محافظة حضرموت - مؤسسة حضرموت للتنمية البشرية - أنموذجاً) للدكتور صالح عوض عرم، في ٥ أغسطس ٢٠٢٢م.

٥-فعالية (الشاعر القدير عوض سالم بن فاتح: حياته وشعره) بمناسبة إحياء ذكرى رحيله الأولى (٤ أغسطس ٢٠٢١م) تقديم: الأستاذ عمر علي باسلمة، الطبيب الشاعر عبدالله عوض بن فاتح، الشاعر محمد سالم بن سويد، الشاعر محمد علي عبدالقوي،

الشاعر جمال عبدالله حميد، الشاعر محمد سالم بن داود، تمَّت هذا الفعالية في ٢٦ أغسطس ٢٠٢٢م.

٦-فعالية (قطوف تاريخيَّة شحريَّة) للباحث محمد عمر باموسى، في ١٩ سبتمبر ٢٠٢٢م.

٧-فعالية (أربعينية الأديب المؤرخ التربوي خميس كرامة حمدان) تقديم: الباحث عادل حاج باعكيم، والباحث عبدالله صالح حداد، والكاتب رياض عوض باشراحيل، في ١٤ أكتوبر ٢٠٢٢م.

٨-فعالية (حديث الذكريات .. جانب في التاريخ السياسي والاجتماعي في الشحر خلال نصف قرن) للأستاذ أحمد يسلم بايعشوت، في ٢٠ يناير ٢٠٢٣م.

٩-فعالية (إشهار وعرض كتاب: "الشحر محطات تاريخيَّة في المسمَّيات والجغرافيا" للباحث العماني سالم بن أحمد الكثيري) تقديم: الباحث عادل حاج باعكيم، عرض: المؤلف الباحث سالم بن أحمد الكثيري، مداخلة الأديب عمر عوض خريص،

والكاتب عمر علي باسلمة، في ١٩ أغسطس ٢٠٢٣م.

١٠- فعالية (عبدالرحمن الملاحي وتراثه العلمي والأدبي) بمناسبة إحياء الذكرى العاشرة لرحيله، تقديم: أ.د. عبدالله سعيد الجعيدي، و د.طه حسين الحضرمي، و د.أحمد هادي باحارثة، والفلكي سالم عمر الجعيدي، في ٣ نوفمبر ٢٠٢٣م.

١١- فعالية (دور المؤسسات التربوية والتعليمية في تربية الطفل وتنمية أدبه وثقافته)، للدكتور صالح عوض عرم، في ٢٥ أكتوبر ٢٠٢٤م.

نماذج من زيارات النادي التكريميَّة:

تكفل "نادي الشحر الأدبي" في خططه وبرامجه وفق أهدافه الثقافيَّة بزيارة وتكريم عدد من الشخصيات الأدبيَّة والثقافيَّة والتربويَّة والاجتماعيَّة والفنيَّة، ونفَّذ خلال الأعوام الثلاثة الماضية جملة من الزيارات التكريميَّة، منها:

١-زيارة وتكريم الأديب أحمد عبدالله بامدحج، ٢٧ مايو ٢٠٢٢م.

٢-زيارة وتكريم الباحث محمد عمر باموسى، في ٢٣ سبتمبر ٢٠٢٢م.

٣-زيارة وتكريم الكاتب القدير محمد سقاف الهدار، في ١٨ نوفمبر ٢٠٢٢م.

٤-زيارة وتكريم مغني الدان محمد أحمد بن سويد (أبو عوض)، في ٩ ديسمبر ٢٠٢٢م.

٥-زيارة وتكريم الشاعر محمد محفوظ سكران (الكالف)، في ٢٣ ديسمبر ٢٠٢٢م.

٦-زيارة وتكريم التربوي والمسرحي محمد عبدالقادر باشراحيل، في ٣ فبراير ٢٠٢٣م.

٧-زيارة وتكريم القاضي محمد سالم الحدادي، في ٢٤ فبراير ٢٠٢٣م.

٨-زيارة وتكريم الحبيب سقاف طاهر بن إسماعيل، في ٣ نوفمبر ٢٠٢٣م.

٩-زيارة وتكريم الشيخ الفقيه التربوي سعيد سالم بن بريك، في ١٥ ديسمبر ٢٠٢٣م.

١٠- زيارة وتكريم الرائدة التربوية القديرة نور مبارك مدِّي، في ٢٢ أبريل ٢٠٢٤م، تنفيذ شعبة المرأة بالنادي.

١١- زيارة وتكريم الشاعرة الشعبية القديرة زينة عمر الحيد، في ٥ ديسمبر ٢٠٢٤م، تنفيذ شعبة المرأة بالنادي.

إصدارات النادي:

تُعَدُّ الكتب والمجلات من أهم ملامح الثقافة والأدب، لذلك كان لنادي الشحر الأدبي خطة مرسومة للمساهمة في ذلك الجانب المهم في الحياة الثقافية، فجاءت "سلسلة كتاب نادي الشحر الأدبي"، الذي كان باكورة إصداراتها كتاب: "الأستاذ عبدالرحمن الملاحي وتراثه العلمي والأدبي (فعاليَّة إحياء الذكرى العاشرة للرحيل)"، إعداد: الهيئة الإدارية للنادي، وتحرير: عادل حاج باعكيم، هذا الإصدار يحمل الرَّقم (١)

من "سلسلة كتاب نادي الشحر الأدبي"؛ وهذا الإصدار الذي بين أيدينا "الأعمال القصصيَّة الكاملة للأديب القدير أحمد عبدالله بامدحج" هو الإصدار الثاني من هذه السلسلة، وستليه إصدارات أخرى بمشيئة الله تعالى.

الأنشطة الإدارية:

اعتنت الهيئة الإدارية لنادي الشحر الأدبي بالجوانب التفاعلية والمشاركة مع منظمات المجتمع المدني في المجالات الثقافية والتنموية والاهتمام بقطاع المرأة ودعم نشاطها في مختلف مجالاتها، فمن الجهود التي أقيمت:

١- توقيع اتفاقيَّة شراكة مع "مؤسسة الأمل الثقافيَّة الاجتماعيَّة النسويَّة" فرع الشحر، عصر الثلاثاء ٢٧ سبتمبر ٢٠٢٢م، وهي اتفاقيَّة تعاون وشراكة في اطار توطيد العلاقات المشتركة بين منظمات المجتمع المدني في حضرموت.

٢-زيارة الهيئة الإداريَّة للنادي للجهات الرسميَّة بالمديرية (الإدارة العامة ومكتب الثقافة) لدراسة سُبل الشراكة والتعاون لتنشيط الحياة الثقافيَّة بالمديرية.

٣-زيارة رئيس النادي الأستاذ عادل حاج باعكيم والأمين العام الأستاذ عمر عوض خريص لفريق "ثقافة حياة التطوعي"، في ١٣ ديسمبر ٢٠٢٢م، وذلك لتعزيز الشراكة المجتمعيَّة بين النادي الأدبي وفريق ثقافة حياة.

٤-المشاركة في افتتاح "معرض ثقافة حياة" بمناسبة ذكرى رحيل المحضار، تلبية للدعوة الموجهة للنادي، في ٣ فبراير ٢٠٢٣م.

أنشطة ثقافية أخرى:

- إقامة معرض الفن التشكيلي الخاص للفنان محمد سالم بن داود (أبو هيثم)، بعنوان: "الحجارة تتكلم"، في الفترة من يوم الجمعة ١٢/ ٧/ ٢٠٢٤م إلى يوم الأحد

١٤/ ٧/ ٢٠٢٤م، بمقر نادي الشحر الأدبي، ببيت الشاعر الكبير حسين أبوبكر المحضار.

- إقامة الدورة التدريبية والتنموية بعنوان: "أسس ومبادئ الإدارة الناجحة"، نفَّذها المدرب الأستاذ وليد خالد صيَّاد، يوم الخميس ٢٩ أغسطس ٢٠٢٤م، بواقع ست ساعات تدريبية.

ملحوظة:

للاطلاع على جميع أنشطة وفعاليات نادي الشحر الأدبي عليكم زيارة صفحتنا على **فيس بوك** باسم "نادي الشحر الأدبي" وأيضاً صفحة شُعبة المرأة بالنادي، باسم "شعبة المرأة بنادي الشحر الأدبي".

فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة
الإهداء	٤
المقدِّمة .. بقلم: أ.عادل حاج باعكيم	٥
شيطان الجسد	٨
زاوية منفرجة	٢٤
قبضة اليد	٣٠
ذلك السوق	٣٤
القضية المحفوظة	٣٧
عنق الزجاجة	٤٨
بعدما طال الانتظار	٥٧
حصة التاريخ	٧٠
لا أحلم بالنوم في العسل	٨٦
لحم الضأن	٩٤
حق العشاء	٩٩
المهاجر	١٠٢

المحتاج	١٠٥
الدرس الأول	١١٥
في بيتنا فأر	١٢٠
الطعم والنكهة	١٢٨
وللمدينة قلب	١٣٥
الصّنيعة	١٤٤
نبضُ قلبي لستُ وحدي	١٤٩
الشجرة والبأس	١٦٤
الأشباه	١٧٢
حين حدَّثتني جدَّتي	١٧٨
المُتَوسِّمُون	١٨٧
الأنانية	١٩٣
شيطان النَّفس	٢١٨
المؤلف في سطور	٢٢٨
التعريف بنادي الشحر الأدبي	٢٣٢
فهرس المحتويات	٢٤٣